

التوبةُ في اليهوديةِ والنَّصرانيَّةِ والإسلام

إعداد

د/ عادل محمد أحمد محمود الحسيني

قسم العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

جامعة الأزهر

التوبةُ في اليهوديةِ والنَّصرانيَّةِ والإسلام

عادل محمد أحمد محمود الحسيني
قسم العقيدة والفلسفة كلية أصـــول الـــدين والـــدعوة بأســـيوط- مصـــر
جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني: Adelelhoseny4819@azhar.edu.eg

الملخص:

لا شكَّ أنَّ قضايا: الخطيئةِ والتوبةِ والغُفرانِ من أهــمِّ وأخطَــرِ العناصــر والقضايا في الفكرِ الدِّينيِّ البَشَرِيِّ، وذلكَ لما يترتَّــبُ عليهــا مــن ثــوابٍ أو عقابٍ، ولهذا فإنَّ الدياناتِ السَّماويةَ تحدثت عن هذا الموضوع بإســهابٍ ووضوحٍ، وهذا ما يجده الباحثون واضحاً في الإسلام، ولكنَّ هذا الوضــوحَ الموجودَ في القرءانِ الكَريمِ لا يُوجدُ في اليهوديةِ ولا في النصــرانية، فقــد امتدت إلي قصةِ آدمَ الكثيرُ من التحريفاتِ التــي أُخــذت مــن الأســاطيرُ والخرافاتُ، وهذا بدوره قد أدّى إلي وقوعِ أتباعِ الديانتين فــي كثيــرٍ مــن الاعتقاداتِ المنحرفةِ المتعلقةِ بمسألةِ التوبةِ، خاصةً عندَ النصــارى الــذين ادّعوا أنَّ خطيئةَ آدمَ ورثتها ذريتُه من بعده حتى جــاءَ المســيحُ لــيخلصَ البشريةَ منها، لذا وجد الباحثُ أنه من الضروريِّ إيضاحَ هذه القضية فــي اليهوديةِ والنصرانيةِ عن طريق المقارنة بين رأي الديانتين في خطيئةِ آدمَ ــ عليه السلام ــ وكيفية انحرافِ النصرانيةِ عما قرَّره العهدُ القديمُ في هذه المســألةِ، إضافةً إلي رأي الديانتين في الخطيئة التي يقعُ فيها كثيرٌ من الناس ومــدى إمكانية التوبةِ والخلاصِ من عقابها، وأخيراً كان التعقيبُ بموقف الإسلام من هذه القضية .

الكلمات المفتاحية: التوبة – الخطيئة – الغفران– اليهودية – النصرانية – الإسلام .

Repentance in Judaism, Christianity and Islam

Adel Mohammed Ahmed Mahmoud Al-Husseini
Department of Belief and Philosophy, Faculty of Fundamentals of Religion and Propagation, Assiut, Egypt Al-Azhar University
Email: Adelelhoseny4819@azhar.edu.eg

Abstract :

There is no doubt that the issues of sin, repentance, and forgiveness are among the most important and dangerous elements and issues in human religious thought, for the reward they entail.

This is what the researchers find clear in Islam, but this clarity found in the noble Qur’an is not found in Judaism or Christianity. Many distortions that were taken from myths and myths extended to Adam’s story. This, in turn, has led to the adherents of the two religions falling into many deviant beliefs related to the issue of repentance, especially among the Christians who claimed that Adam’s sin was inherited by his descendants after him until Christ came to save humanity from it, so the researcher found it necessary to clarify this issue in Judaism and Christianity about The way of comparing the two religions ’view of Adam’s sin - - and how Christianity deviates from what the Old Testament decided on this issue, in addition to the two religions’ view of the sin in which many people fall and the extent of the possibility of repentance and salvation from its punishment, and finally, commenting on Islam’s position on this issue.

Key Words: Repentance - Sin - Forgiveness - Judaism - Christianity - Islam.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، حمداً يليقُ بجلالِ وجهِهِ وعظــيمِ سُــلطانِه، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ المرسلينَ، سيدِنا محمدٍ بنِ عبد الله النبي الأمي الأمينِ، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَنْ سارَ على دربهم إلي يوم الــدين، وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد: فإنَّ اللهَ -ﷻ- أرسلَ نبيَّه محمداً -ﷺ- على فترةٍ من الرسل وانقطاعٍ من الكتب، وأنزل معه الكتابَ بالحق لــيحكمَ بــين الناس فيما اختلفوا فيه، ويهدي إلي صراطٍ مستقيم، صراطِ اللهِ الذي له ملكُ السَّماواتِ والأرضِ، فكان الناسُ فيه فريقين: مؤمن وكافر.

* فأما المؤمنون -وهم أهمُّ وأعظمُ صِنفٍ من أصنافِ المدعوّين- فهم فرقٌ نسألُ اللهَ أن يجمعَهم على سبيلِ الحق، ويهتدون بنورِ الله، ويحتكمون إلى شرعِه، فيكونُ طريقُهم نوراً على نور، إلى أن يبلغــوا غايـــةَ الأمــر، ونهايته رضوان الله ﷻ وجنته.
* وأما الكافرون فهم على سُبُل متشعبةٍ متفرقة، يجمعُهم الكفــرُ، وتُفــرقهُم الطريقةُ والنهجُ، فمنهم:

(١) الملحدُ الذي يتعامَى عن ربه، ويتخبطُ في الدنيا على غير هُــديً مــن شرعٍ إلهي.

(٢) ومنهم: الوثنيُّ الذي ضلَّ عن ربه فعبد ما لا يُسمنُ ولا يُغني من جوع.

(٣) ومنهمُ: اليهوديُّ الذي أضلَّه الله على علمٍ، وختمَ على ســمعِه وقلبِــه، وجعلَ على بصره غشاوةً، أعماهُ الكبرُ والحسدُ، وتخبَّطه الشَّيطانُ حتى أعرضَ عن الحقِّ، وتمرَّغ بالباطلِ، وجابَهَ ربَّه بكلِّ خُلقٍ رذيلٍ، وطبعٍ مشينٍ، فاستحقّ غضبَ الله ولعنتَه، ومـــا ظلمهـــم الله ولكـــن أنفسَـــهُم يظلمون.

(٤) ومنهم النصرانيُّ عابدُ مَنْ قُتلَ على الصليب، اتخذَ إلهه هَوَاهُ حتَّى عــدَّ الوثنيةَ ديناً حقاً، والشركَ توحيداً، وقالَ في اللهِ قولاً عظيماً، يُضـــاهي

بذلكَ قولَ الذين كفروا من قبلُ وضلُّوا عن سَواءِ السَّبيلِ، وزيَّنَ لهُ الشيطانُ سوءَ عملِه فرآهُ حسناً، فإنَّ اللهَ يُضلُّ من يشاءُ ويَهدي من يشاءُ، وما ربُّكَ بظلَّامٍ للعبيدِ.

والمسلمُ صاحبُ دعوةِ حقٍّ، لا يضرُّه كثرةُ الهالكين فى الغيِّ والضلال، ولا قلةُ السَّالكين طريقَ الخير، إذْ هو يَسيرُ بنور الله ﷻ وهدايتِه، وهو داعيةٌ مشفقٌ ناصحٌ، وطبيبٌ ذكيٌّ حاذقٌ، ينصحُ للخلقِ رغبةً في نجاتهم، ويصفُ الدَّواءَ للمريضِ رجاءَ الشِّفاء، ولن يصفَ الدواءَ من لم يعرف الداءَ، لذا صارَ على المسلم الدَّاعيَةِ أن يعرفَ شيئاً من أديانِ الناسِ، فإنَّ لذلك عدَّة فوائد:

أولاً: إنَّ ذلكَ عاملٌ مساعدٌ للدَّاعيةِ يُسَهِّلُ له دعوةَ أصحابِ الأديانِ المنحرفةِ بإبرازِ مواضعِ الانحرافِ والفسادِ في دِياناتهم، ثم نقلهم إلى ضدها في الدينِ الإسْلاميِّ، ويُبرِزُ لهم نصاعةَ الإسلامِ وسلامَتَه من التَّحريفِ في مصادرِه، وانسجامَه مع الفطرةِ البشريةِ السَّليمةِ في عقيدَتِهِ وعبادَتِهِ وتشريعاتِه.

ثانياً: إنَّ المنصرين غزوا كثيراً من مناطقِ المسلمين، يبثُّونَ سُمومَهم، ويتصيَّدون الجهَلَةَ والبُسَطَاءَ من المسلمين لتنصيرهم، فبمعرفةِ المسلمِ لديانةِ هؤلاءِ المنصِّرينَ يستطيعُ أن يُبينَ للمسلمين فسادَ دعوتِهم، والانحرافَ الدينيَّ الذي هم عليه، وخبثَ مقاصدهم ونياتهم.

ثالثاً: إنَّ النظرةَ الفاحصةَ لما عليه أصحابُ الأديانِ الأخرى -غير الإسلام- تزيدُ المسلمَ يقيناً بدينِه، إذ يظهرُ له تميزُ الإسلامِ ورفعتُه، وأنه الدينُ الذي قام -ولا يزال- على التوحيدِ الخالصِ، والعبادةِ الحقةِ لله تعالى، والشرع الصالحِ للبشر إلي أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، كما يتَّضِحُ له سلامةُ مصادرِ الإسْلامِ من التَّحريفِ والتَّشويهِ اللَّذَيْنِ وقعا في مصادر الأديان الأخرى.

رابعاً: معرفةُ واقعِ هذهِ الأديانِ يتبينُ به المسلمُ مدى الانحرافِ الــذي وقعَ فيها، وأسبابه، ليتجنبَ هذه الأسبابَ، ويحرصَ على المحافظــة علــى السنة، ونبذِ البِدْعة، إذ البدعةُ من أبرزِ أسبابِ الانحرافِ في العبادةِ والتَّشريعِ لدى الأديانِ الأخرى.

وإنَّ الناظرَ في تاريخِ أُمتِنا الإسلاميةِ يجدُ أنه ما من فترةٍ من فتراتِ تاريخِها إلَّا وتعرضتْ فيها لحمَلاتٍ شعواءَ، وهجومٍ كاسحٍ من قبلِ الأعــداءِ عسكرياً وفكرياً، وبفضل الله تعالى وحده يوجد في كل مرةٍ من يوقِظُ وينشِطُ جهازَ مناعةِ أمتنا الإسلامية، ويُقصَدُ بهم: أهلُ الجهاد وأهلُ العلم الذين هبوا ونشطوا للرد على هؤلاءِ وأولئكَ، فكان الأولون أسوداً في المعارك، يردُّونَ السيفَ بالسيفِ، والرُّمحَ بالرمحِ، والمدفعَ بالمدفعِ، وكان الآخرون منــاراتٍ في ميادين المناظراتِ والمكاتباتِ الفكريةِ، التي تقرعُ الحجةَ بالحجةِ، والدليلَ بمثله، فيتجلى الحقُ من الباطل، وتزولُ الشبهاتُ، وقد دخل فــي الإســلام بفضل الله – ثم بفضلهم – الكثيرُ والحمدُ لله، وفي هــذه الحِقبــة العصــيبة تتعرضُ أُمتُنا لكل ما سبقَ من فتنٍ وحروبٍ، فالعدوُّ تــوحشَ بشــكلٍ غيــرِ مسبوقٍ، وتكالبت علينا الأُممُ من كل مكان، فتارةً نجد صحفياً يتعدَّى علــى رسولِ الإنسانيةِ -ﷺ- برسوماتٍ كرتونيةٍ، وتارةً أُخرى نجد بابا الفاتيكــان بندكت[1] يطرحُ الشبهاتِ ضدَّ الإسلامِ، وبلغ التعدِّي على حُرُمَاتِ الأنبيــاءِ ومقامِهم الكريمِ مبلَغَهُ عندَمَا قامَ مجموعةُ من النَّصارى واليهودِ من جنسياتٍ مختلفةٍ على رأسهم (نصارى مصر في أمريكا) بإنتاجِ فيلمٍ يصــوِّرُ حيــاةَ الرسولِ الكريمِ -ﷺ- بإسفافٍ واضح وتعدٍ سافرٍ، وأعلنت حركاتُ التنصيرِ

(١) بيندكت السادس عشر بابا الفاتيكان (تولي البابوية بعد البابا يوحنا بولس الثاني) وهو البابا رقم ٢٦٥ في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، ومعروف بعدائه الشديدِ للإسلام، وهذا ما ظهر جلياً في أول محاضرةٍ ألقاها بعد توليه الكرسي البابوي بأيام قليلة في جامعة ألمانية، حيث وصف فيها الإسلامَ بأنه دين قام على البطش والفتك والإرهاب والسيف، ينظر: بيندكت السادس عشر البابا الذي لا يعرف شيئاً ص ٥ د عبد الودود شلبي، كتاب المختار ط ٢٠٠٧ م.

عن نفسِهَا، بعد أن كانت تتخفى وراءَ ستار، وظهر دجَّالون كُثُرٌ كلٌّ منهم يريدُ الشهرةَ ولفتَ الأنظار على حسابِ الإسلام والمسلمين، وكل هؤلاء ينشرون سمومَهم عبر القنواتِ الفضائيةِ المأجورةِ والمدعومةِ من جهاتٍ تريدُ الإضرارَ بالإسلام والمسلمين عامة، وبالمصريين ووحدتهم خاصة، ولم يقف الأمرُ عند هذا الحدِّ بل إنهم ينشرون هذه السمومَ عبر برامج (الشات) الحواريةِ على شبكة الإنترنت على مدار الساعة، حتى يصلوا لشباب صغار، المسلمين– أو كبارهم– الذين لم يدرسوا الدينَ دراسةً تمكنهم من معرفةِ الطيبِ من الخبيث، والغثِّ من الثمين، والمتبصرُ في طريقةِ عملِ هؤلاءِ يُدرِكُ يقيناً أن هناك أهدافاً شبهَ معلنةٍ وواضحةً خلفَ حملتِهِم التنصيريةِ تتلخصُ في الآتي:

١ــ تشكيك صغار وعوام المسلمين في عقيدتهم الراسخة.

٢ــ التبشيرُ بالنصرانيةِ في أرضِ المسلمين.

٣ــ إشعال الفتنة الطائفية بين المسلمين والنصارى في مصر، وهذا بكل تأكيدٍ يصب في مصلحة العدو الصهيوني.

٤ــ وهناك هدفٌ شخصيٌّ وهو جمعُ المال والثروةِ من مؤسسات التبشير المختلفة.

٥ــ تعويد آذان المسلمين على سماع السب والقذف في حق الله تعالى، وبالتالي لا يتحركُ المسلمُ للدفاع عن دينه، ويصبحُ مثلَهم في المشاعر والأحاسيس.

ولكن يا تُرى ما دورُ علماءِ المسلمينَ تجاهَ هذه الحملاتِ الشرسةِ من هنا وهناك والتي تُهدّدُ شبابَ المسلمين والعوام منهم؟

لابدّ أن تكونَ هناكَ دعوةُ لكلِّ عُلماءِ الأمةِ المختصين في هذا الشأنِ لمواجهة هذا السيلِ الجارفِ من الحربِ الفكريةِ المعلنةِ، وعملُ خطة لمواجهة العدو تكون بنودها كالآتي:

١ــ يجبُ أن نستخدمَ ما لدينا من وفرةٍ في القنواتِ الفضائيةِ، للردِّ وتفنيدِ كلِّ الشبهاتِ، وطرحِها بشكلٍ واضحٍ ومبسطٍ، حتى يظهرَ مدى جهلِ وخداعِ أمثالِ هؤلاءِ.

٢ــ التمسك بلغة الحوار المتحضر مع غير المسلمين في بلاد الإسلام وخاصة مصر، ومحاولة تفادي المشكلات الطائفية التي يفتعلها الصهاينة، وشبكاتُ التنصير التي أسسها بعضُ القساوسة وأعوانهم.

٣ــ النقد العلمي المدروس للمادة التبشيرية التي يُحاولُ القائمون على هذه القنوات بثَّها في عقولِ المستمعين، وتوضيحُ مواطنِ الفسادِ والتحريفِ في تلكَ البضاعة، ولا يخفي على أحدٍ أنَّ هناك الكثيرُ من المتخصصينَ المثقفينَ الدارسينَ لعلمِ مقارنةِ الأديَانِ من أبناءِ الأمةِ العربيةِ والإسلاميةِ، ولا يمكنُ أن ننسى الدورَ الكبيرَ الذي قام به فارسُ الدَّعوةِ الشيخُ أحمد ديدات(١) –يرحمُه اللهُ– فقد ألف العديدَ من الكتب، وقامَ بالعديدِ من المناظراتِ مع كبارِ المنصرين في شتى أقطار العالم في أوروبا وأمريكا، وكَشَفَ بضاعتَهم الفاسدةَ، وكانت هذه الكتب والمناظرات عبارة عن مقارنات بين العقائد والعبادات والموضوعات ذات الأهمية في اليهودية والنصرانية، مما يحتمُ على عُلماءِ المسلمين مواصلة السير على درب هؤلاء.

---

(١) ولد الشيخ أحمد حسين ديدات عام ١٩١٨م في بلدة تادكيشنار بولاية سوارات الهندية، هاجر إلي جنوب أفريقيا ١٩٢٧ ليلحقَ بوالده، بدأ دراسته في العاشرة من عمره، ثم عمل ١٩٣٤ بائعاً للمواد الغذائية، ثم سائقاً في مصنع، ثم تدرج في المناصب حتى عين مديراً له، واشتغل بأعمالٍ عديدةٍ، ثم قرر أن يعمل في مجال الدعوة والدفاع عن الإسلام، فألف كتابه الأول: ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ؟ ثم: هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ثم زار معظم دول العالم لإلقاء المناظرات والندوات والمحاضرات، وأسس معهداً لتخريج الدعاة في مدينة ديربان بجنوب أفريقيا، وله أكثر من عشرين كتاباً في مقارنة الأديان، منح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام ١٩٨٦م وتوفي يوم الاثنين ١٤٢٦/٧/٣ هـ بعد معاناته من مرض عضال ألزمه الفراشَ لسنواتٍ عدةٍ كان خلالها ملازماً للدعوة إلي الله ﷻ لم يتركها حتى وافته المنية. www.saaid.net موقع: صيد الفوائد.

منهجُ إعدادِ البحث: اعتمدَ الباحثُ في إعداد بحثه على عدَّةِ مناهجَ منها: المنهجُ التحليليّ: وهو أسلوبُ البحثِ الذي يعتمدُ على تحليل عينات معينة من زاوية محددة، والبحث فيها عن سمات معينة ونسبة كلّ سمة فيها[١]، ومنها: المنهجُ الاستقرائي: وهو المنهجُ الذي يتتبعُ جزئياتِ الظواهرِ والأشياءِ ليصلَ إلى أحكامٍ عامةٍ، (٢).

الدراسات السابقة ذات العلاقة بالموضوع: اتباعاً للمنهجِ العلميِّ في ذكر الدراساتِ السابقةِ بأنَّها الأبحاثُ والرسائلُ العلميةُ التي كتبها الباحثون لم أجد- فيما قرأتُ، وفيما وقعَ تحتَ يدي من مراجعَ- رسائلَ وأبحاثاً علميةً[٣] في هذا الموضوع.

وقد اقتضت طبيعةُ البحث أن يأتيَ في مقدمةٍ وتمهيدٍ وسبعةِ مباحثَ وخاتمةٍ:

أما المقدمةُ: فقد بينَ الباحثُ فيها أهميةَ الموضوع وأسبابَ الكتابة فيه ومنهجَه في إعدادِ البحث، والدّراساتِ السابقةَ في الموضوع، وخطةَ البحثِ المقترحةَ لمُعالجةِ الموضوع.

وأما التمهيدُ: فقد عرَضَ فيه مفهومَ التوبة في الأديانِ السماويةِ الثلاث.

وأما المبحثُ الأولُ فقد جاءَ عُنوانُهُ: موقفُ اليهوديَّةِ من خَطيئةِ آدَمَ عليه السَّلامُ.

وأما المبحثُ الثاني فكان بعنوان: التوبة من المعصية في اليهودية.

١- http://www.ed-uni.net/ed/showthread.php?t=12370

٢- مناهج البحث العلمي صـ٦٨ د. عبد الرحمن بدوى، دار النهضة العربية، مصر١٩٦٣م.

٣- لكني وجدتُ بعضَ المراجعِ الحديثةِ في الموضوع، والتي يعتري كلٌّ منها نقصٌ في جانبٍ معيَّنٍ من جوانب البحث، والتي حاولتُ- قدرَ جهدي أن أتلافى هذا النقصَ، وأسدَّ هذا العجزَ، وبيانُها كالتالي:-

١ــ حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرءان، د فتنت مسيكة بزري.

٢ــ الخلاص من الخطيئة في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام، د محمد عبد الرحمن عوض.

٣ــ الخطيئة والتوبة بين اليهودية والمسيحية، د محمد أحمد الخطيب.

وأما المبحثُ الثالث فعنوانه: الخطأ والذنب في النصرانية وفيه مطلبان: الأول (أساس قضية الخطيئة عند النصارى) والثاني:(تأثر النصرانية بالمعتقدات والأفكار القديمة).

وأما المبحثُ الرابع فعنوانه: التوبةُ والخلاصُ من الذنبِ في النصرانيةِ الحديثةِ وفيه ثلاثة مطالب: الأول(التعميد) والثاني (العشاء الرباني) والثالث (الاعتراف وصك الغفران).

وأما المبحثُ الخامس فعنوانه: حقيقةُ التكفيرِ عن الذنبِ في النَّصرانيةِ من خلالِ أقوالِ المسيحِ الحَقَّةِ.

وأما المبحثُ السادسُ فعنوانه: التوبةُ بينَ اليهوديةِ والنَّصرانيةِ.

وأما المبحثُ السابع فعنوانه: التوبةُ في الإسلامِ، وفيه خمسةُ مطالب: الأول (معصيةُ آدمَ وموقفُ الإسلامِ منها) والثاني (المعصيةُ وفطرةُ الإنسان) والثالث (المستحقونَ للتوبةِ والمحرومونَ منها) والرابعُ (فضلُ التوبةِ والاستغفارِ في البيانِ القرءانيِّ الكريمِ) والخامسُ (التوبةُ والإنابةُ في البيانِ النبويِّ الشريفِ)

ثم تأتي الخاتمةُ وفيها أهمّ نتائجِ البحثِ، يعقبُها فهرسٌ للموضوعاتِ وآخرُ للمراجع، واللهُ من وراءِ القصدِ، وهو المُعينُ والمرجوٌّ منه الصوابُ والسدادُ.

تمهيـــــــد

لا شكَّ أنَّ قضايا: الخطيئةِ والتوبةِ والغُفرانِ من أهمِّ وأخطَرِ العناصر والقضايا في الفكرِ الدِّينيِّ البَشَرِيِّ، وذلكَ لما يترتَّبُ عليها مـــن ثـــواب أو عقاب، ولهذا فإنَّ الدياناتِ السَّماويةَ تحدثت عن هـــذا الموضـــوع بإســـهابٍ ووضوحٍ، وهذا ما يجده الباحثون واضحاً في الإسلام، وذلك عنـــدما بَـــيَّنَ القرءانُ الكريمُ حقيقةَ الخطيئةِ التي وقع فيها آدمُ – عليه السلام– وتوبةَ الله عليه قبل نزوله إلي الأرض، كما بيَّنَ القرءانُ أنَّ الإنسانَ مسئولٌ عن خطيئتـــه، وأنَّ بابَ التوبةِ مفتوح بلا وساطةَ بين الله وخلْقِهِ.

ولكنَّ هذا الوضوحَ الموجودَ في القرءانِ الكَريمِ لا يُوجدُ في اليهوديةِ ولا في النصرانية، فقد امتدت إلي قصةِ آدمَ الكثيرُ من التحريفات التي أُخذت من الأساطيرُ والخرافاتُ، وهذا بدوره قد أدى إلي وقوعِ أتباعِ الديانتين فـــي كثيرٍ من الاعتقاداتِ المنحرفةِ المتعلقةِ بمسألةِ التوبةِ، خاصةً عندَ النصـــارى الذين ادعوا أن خطيئةَ آدم ورثتها ذريتُه من بعده حتى جاءَ المسيحُ ليخلصَ البشريةَ منها، لذا وجد الباحثُ أنه من الضروري إيضاح هذه القضية فـــي اليهودية والنصرانية عن طريق المقارنة بين رأي الديانتين في خطيئةِ آدمَ – عليه السلامُ – وكيفية انحراف النصرانية عما قرره العهدُ القديمُ فـــي هـــذه المسألةِ، إضافةً إلي رأي الديانتين في الخطيئة التي يقعُ فيها كثيرٌ من الناس ومدى إمكانية التوبة والخلاص من عقابها، وأخيراً كان التعقيـــبُ بموقـــف الإسلام من هذه القضية.

لكن ينبغي – قبلَ الدُّخولِ في ثنايا البحث– أن تُعـــرفَ التوبـــةُ فـــي الأديانِ الثلاثةِ فمما جاءَ في تعريفِها:

أولا: تعريف التوبة في اليهودية: تكثرُ في العهدِ القديمِ المفرداتُ التي تشيرُ إلى توبةِ الإنسان، فالتوبة:(عودةٌ إلى الرب، وتراجعٌ عن طريقِ الشرِّ والخطيئة، وسلوكُ طريقِ الخير، وهي أيضاً: البحـــثُ عـــن الله، والتمـــاسُ وجهه، وإعدادُ القلب له) والله هو التوابُ دائماً، والحاضرُ لاستقبالِ الإنسانِ

التائبِ، ذلكَ أنَّ اللهَ هو المبادِرُ إلي دعوةِ الإنسانِ الذي يُلَبــي نــداءَ اللهِ أو يرفُضُه بكاملِ حُرِّيتِه التي وضعها اللهُ فيه (١).

وإذا تم استعراضُ بعضِ النصوصِ التــي وردت فــي الكتــاب المُقدَّسِ عندَ اليهودِ والنصارى فإنها تؤكِّدُ هذه المعاني التي عُرِّفتْ بها التوبةُ فمنها مثلاً ما جاء في بعض الأسفار:("قبلَ المرض كن متواضــعًا، وعنــدَ ارتكابِ الخطايا أرِ توبتك" (٢)(اذْكُرْ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتَ وَتُبْ، وَاعْمَلِ الأَعْمَــالَ الأُولَى"(٣)، لقد ترافقت التوبةُ في العهدِ القــديمِ بــالكثيرِ مــن المُمارسَــاتِ والعِبَاداتِ المُختلفةِ، فكانَ الناسُ يُقررونَ أصواما واعترافاً جماعياً بالخطايا التي ارتكبوها كي يتحننَ اللهُ عليهم فيغفرَ لهم:(وصاموا فــي ذلــكَ اليــومِ وقالوا: هناك قد خطئنا إلي الرب) (٤)

ثانيا: تعريف التوبة في النصرانية: أما في النصرانيةِ فإنَّ كلمةَ توبة لها معنيان "تاب" أي ثاب، أي عادَ إلى ثوابه أو رشدِه. والمعنــى الثــاني: ميطانية مأخوذةٌ من كلمتين "ميتا" و"نوس": "ميتا" أي ما وراء، و"نــوس" أي عقل، أي تغير الفكر الداخلي للإنسان (ما وراء العقل الظاهر) أو تغير الفكر الذي يتحكمُ في سلوكِ الإنسانِ، ولذلكَ فالخطيئــةُ ســببُها اتجــاهٌ خــاطئٌ، وبتصحيحِ الاتجاهِ الخاطئِ إلى اتجاهٍ حقيقيٍّ يَصلحُ الفكر، وبالتــالي يصــلحُ الاتجاه، نقطة مهمةٌ لابُدَّ أن نركزَ عليهَا في هذا السر: التوبة هــي جــوهرُ الاعترافِ، اعترافٌ بدونِ توبةٍ يساوي صفراً، لا حلَّ ولا شيئ يُفيدُ الإنسَانَ في الاعتراف، فبدونِ التوبةِ الاعترافُ لا قيمةَ له، ومــن زاويــة أخــرى: الاعترافُ هو إعلانٌ عن التوبةِ وضمانٌ لعدَمِ العودَةِ للخطية.(٥)

(١) www.orthodoxonline.org
(٢) سفر يشوع بن سيراخ ١٨: ٢١)
(٣) (سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢: ٥)
(٤) سفر صموئيل الأول: ٧: ٦
(٥) http://st-takla.org/Saints/Coptic-Orthodox-Saints-Biography/Coptic-Saints-Story_1532.html موقع الأنبا تكلا

والمُلاحَظُ في التعريفِ النصرانيِّ للتوبةِ أنه يركِّزُ على مسألة: الاعتراف الذي بدونه لا تتمُّ التوبةُ، وطبيعيٌّ أن يكونَ الاعترافُ أمامَ الكاهنِ، وهو الواسطةُ بينَ اللهِ والتائبينَ في العقيدةِ النصرانية وهذا ما لا يوجدُ في الإسلام.

ثالثا: تعريف التوبة في الإسلام: التوبة لغة: التَّوبَةُ: بفتح التاء وسكون الواو – مأخوذة من «تَوَبَ» التاء والواء والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع، يقال: تاب وأناب إذا رجع عن ذنبه(١).

والتوبةُ: هي الرجوعُ إلى الله، بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب، والتَّوْبُ والتَّوْبَةُ معناهما واحد، والمراد: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغُ وجوهِ الاعتذار(٢).

والتوبة في الشرع: عبارة عن ندمٍ يورثُ عزماً وقصداً على عدَمِ العودِ أو تكرار الخطيئة (٣)، وتتحقق بأن يرجعَ الخاطئُ عن الفعل القبيح شرعاً وعقلاً، أو عن الإخلال بالواجب في الحال، ويندمَ على ما مضى، ويعزمَ على تركه في المستقبل(٤)، قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة»(٥).

والحقيقةُ أنَّ التوبَةَ لغةً هي: الرجوعُ، ولا يلزمُ أن تكونَ عن ذنب، وشرعاً: هي الرجوعُ عن التعويجِ إلى سننِ الطريقِ المستقيمِ(٦)

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة: توب

(٢) معجم مقاييس اللغة نفس الموضع السابق.

(٣) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ٣٤/٤ ط دار المعرفة بيروت.

(٤) روح المعاني في تفسير القرءان العظيم والسبع المثاني ٣٥/٢٥ لأبي الفضل محمود الألوسي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) رواه ابن ماجه وغيره، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، حديث رقم: ٤٢٥٢ ج ١٤٢٠/٢، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، وقال الألباني: صحيح، نشر: دار الفكر، بيروت.

(٦) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٥٤٣/٢، محمد الشربيني الخطيب، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر بيروت ١٤١٥ هـ.

وأما الندمُ والعزمُ فهما من مقوماتِ الرجوعِ الصَّحيحِ الذي يُعدَّ إقلاعاً صادقاً عن المعاصي.

ولا بُدَّ أن يكونَ الباعثُ على الرجوعِ مع النَّدَمِ والعزمِ دينيَّاً أو شخصياً أمراً ذاتياً بحتاً مع القدرة والإرادة، فلو رجعَ لسببٍ آخرَ من ضعفِ بدنٍ، أو غرامةٍ ماليةٍ، أو تهديدٍ بحبسٍ، أو إكراهٍ من الدَّولةِ، لم تكن التوبةُ محققةً نتائجَهَا الدينيةَ المرجوةَ، وأخَصُّها تكفيرُ الخطايا في عالم الآخرة، وإن حققتْ نتيجةً مدنيةً تهتمُّ السلطةُ بها ألا وهي: قمعُ الإجرامِ وتوفيرُ الأمنِ والطمأنينةِ والاستقرارِ.

هذا هو تعريفُ التوبةِ من وجهةِ النظرِ الإسْلاميةِ، وقد أَمَرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- بها فقال:" وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"(١) ووعد بقبولها فقال: " وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ"(٢).

فَمَن أرادَ الرجوعَ إلى الطريقِ المستقيمِ فلا عليه إلا أن يُبادرَ بالتوبةِ، ويُقلعَ عن الذنوبِ من قبلِ أن يأتيَ يومٌ يُحالُ فيه بينَه وبينَها، فيتحسَّرَ على ما فرط، ويضيقَ ذرعًا بما وصلَ إليه من واقعٍ مريرٍ، ويندمَ ولاتَ ساعة مَنْدَمٍ؛ فليشمر المسلمُ عن ساعدِ الجدّ، وليتب إلى الله بلسانه ويعزم بقلبه، محققاً مدلولَ التوبةِ بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، علَّ اللهَ يقيلُ عثرته، ويقبلُ أوْبَتَه، ويغفرُ ذنبه، فيأخذ طريقه على هدى من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وينظمه الله في سِلْكِ عبادِه المهتدين، مصداقًا لقوله- سبحانه وتعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}(٣).

---

(١) من الآية: ٣١ من سورة النور.

(٢) من الآية: ٢٥ من سورة الشوري.

(٣) الآية: ٨٢ من سورة طه.

المبحث الأول

موقفُ اليَهوديَّةِ من خطيئةِ آدمَ عليه السلام

التوراةُ هي كتَابُ اليَهُودِ المقدسُ، ويرَونَ أنَّه كُتِبَ في عَهدِ موسى -عليه السلام- على الأخصِّ الأسفارُ الخمسةُ المنسوبةُ إليه- ولا يَعتدُّ اليهودُ كثيراً بما يثيرُه المخالفونَ لهم مِنْ أنَّ التَّوراةَ قد ضاعت، ولم يبقَ منها إلا حِكايَاتٌ أقربُ إلي القَصَصِ الشَّعبيِّ والأساطيرِ، ولسنا هنا بصَدَدِ بيانِ التَّحريفِ والتَّبديلِ اللذَينِ تعرضتْ لهما التَّوراةُ- لأننا نحنُ المسلمينَ نعتقدُه كما أخبرَنَا بذلكَ القرءانُ الكريمُ-(١) ولكنَّنَا سنُحَاولُ التعرُّفَ على مفهومِ الخطيئةِ والخلاصِ منها (التوبة) كما يراهُ اليَهودُ.

تُعَدُّ قصةُ الخطيئة الأولى التي ارتكبها آدمُ-عليه السلام- في الجنة واحدةً من القَصَصِ المُهِمَّةِ التي يرويها العَهدُ القَديمُ، وذلكَ لما يترتَّبُ عليهَا من أفكارٍ ومُعتقداتٍ وأساطيرَ في اليهوديَّةِ والنَّصرانيّةِ، وهاكَ النصّ الأصليّ الذي وردَ في الإصحَاحِ الثالثِ من سفر التكوين، لعلَّ من خِلالِ ذكرِه تظهرُ بعضُ المُعتَقَدَاتِ التي يؤمنُ بها اليَهودُ، ومما جاءَ فيه:

(وكانت الحَيَّةُ أحيَلَ جميعِ حَيَوانَاتِ البريَّةِ التي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإله فقالت للمرأة: أحقاً قالَ الإلهُ: لا تأكُلا من كلِّ شَجَرِ الجنَّة؟ فقالت المرأةُ للحيَّة: من ثمرِ شجَرِ الجنَّة نأكل، وأما ثمرُ الشجرةِ التي في وسطِ الجنَّة فقالَ اللهُ: لا تأكلا منه، ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها، وأكلت، وأعطت رجلَها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مئزراً،

(١) وذلك في قوله تعالى:(فويلٌ للذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثم يقولونَ هذا من عندِ اللهِ ليشتروا به ثمنا قليلا فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهم مما يكسِبون) الآية ٧٩ من سورة البقرة.

وسَمِعَا صوتَ الرّبِّ الإلهِ ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادي الـربُّ الإلــه آدمَ وقال له: أين أنت ؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنـي عريــان فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتُك ألا تأكلَ منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتَها معي هي أعطتني من الشـجرة فأكلت، فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلتِ؟ فقالت المـرأة: الحيـة غرتني فأكلتُ، فقال الرب الإله للحية: لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنكِ تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك...... وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعابَ حبلك، بـالوجع تلــدين أولاداً، وإلي رَجُلِكِ يكونُ اشتياقكِ، وهو يسود عليك، وقال لآدم: لأنكَ سمعتَ لقول امرأتك وأكلتَ من الشجرة التي أوصيتُك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونةُ الأرضُ بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك.........وقال الرب الإله: هــوَ ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخـذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلي الأبد، فأخرجه الرب الإله من جنــة عدن ليعمر الأرضَ التي أخذ منها...(١)

ولا يخفَى على كلِّ عاقلٍ ما في هذا النصِّ من افتراءاتٍ وخُــزَعبلاتٍ لا توجَدُ إلا في القَصصِ الشعبيِّ والرواياتِ الخياليَّةِ التي يَشطحُ بها كاتبوها ليعيشَ القارئُ في جوٍّ من الخَيَالِ والنشوةِ المؤقتةِ، ثم لا يلبثُ أن ينتهيَ من قراءةِ قصته فيجد نفسَه وقد ملأه العُجْبُ بعدَ أن يعودَ إليه عقلُه ورشدُه، ومن خلالِ عرضِ هذا النصِّ التوراتي عن موقفِ اليهوديةِ من الخطيئةِ تتضـحُ بعضُ المعتقداتِ التي تؤمنُ بها اليهوديةُ كما يراها أحدُ الباحثين وأهمها:

(١) سفر التكوين ٣/١ــ٢٤

(١) أن اليهوديةَ تعتقدُ أنه لولا خطيئةُ آدم وأكلُه من الشجرة لما عاقبه الله وأنزله من الجنةِ إلي الأرض، فالخطيئةُ هي السببُ في وجودِ الإنسانِ على الأرض [١].

(٢) لم يرد ذكرٌ لإبليسَ في القصةِ، فلم يذكر النصُّ إلَّا غوايةَ الحيةِ لحواءَ، والحوارَ الذي دار بينهما.

(٣) حدَّدَ النصُّ مرتكبَ الخطيئةِ الأُولي فهو يحملُ حواءَ مسئوليةَ هذِه الخطيئة[٢]، ولولاها لما ارتكبَ آدمُ خطيئتَه، ولذلك فقد حمَّلها اللهُ جزءاً كبيراً من المسئوليةِ وعاقَبَها بأتعابِ الحملِ والولادةِ.

(٤) أنَّ الشجرةَ التي نهاهُما اللهُ عن الأكْلِ منْها هي شجرةُ المعرفةِ، فلم تكن شجرةً عاديةً، أو شجرةً تؤدي إلي الموتِ، وهذا يعني: أنَّ اللهَ-ﷻ- قد تعمَّد أن يُضلَّهُما، وأن لا يذكُرَ لهما الحقيقةَ[٣]

(٥) أنَّ الله-ﷻ- عاقبَ آدمَ وحواءَ بخروجِهِما من الجنة، وهذا يعني: أنَّ الخطيئةَ انتهتْ بتلكَ العقوبةِ.

ويؤكِّدُ أحدُ الباحثِينَ الغربيينَ أنَّ الأساطيرَ السَّاميةَ والسُّومريةَ القديمةَ كانت "المُعِينَ الغزيرَ الذي أَخَذَتْ منه التّوراةُ قَصَصَ الخلـقِ والغِوايـةِ"[٤] ولعلَّ اليَهُودَ قد أدخلوا بعضاً منها في التوراةِ من البابليين فقد "كان البابليون

(١) والحقيقةُ خلافُ ذلكَ إذ أنَّ خطيئةَ آدمَ -عليه السلام- انتهت وانتهى أثرها بمجرد إعلان توبته هو وزجتُه وهذا ما نصت عليه الآياتُ القرءانيةُ الصريحة في مثل قوله تعالى في سورة طه: "ثم اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهدَى" وقوله تعالى في سورة الأعراف: " قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" فنزولُ آدمَ إلى الأرضِ كانَ من أجلِ الخلافةِ وإعمارِ الأرضِ وتناسُلِ النوعِ البشريِّ.

(٢) بين الإسلام والمسيحية، كتاب أبي عبيدة الخزرجي، تعليق د محمد عبد الغني شامة هامش ص ٧٣، ط مكتبة وهبة، ١٩٧٩م.

(٣) وإن كانَ الباحثُ يتفقُ مع بعضِ هذه الاستنتاجاتِ إلا أنه لا يرتضي القولَ: بأنَّ اللهَ قد تعمَّدَ أنْ يُضلَّ آدمَ وزوجَه، وألا يذكُرَ لهما حقيقةَ الشَّجرةِ التي أَكَلا منها، فلابُدَّ أن نُنزِّهَ الذاتِ العليةَ عن مثل هذه الافتراءات، وأن تأخذَ حقَّها اللائقَ بها في التنزيهِ والتعظيمِ والإجلال.

(٤) قصة الحضارة مجلد ١ ج ٢ص ٣٦٨، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة: محمد بدران.

يؤمنون بأن الإنسانَ تمــرَّدَ علــى قســمة المــوت، وطمــح إلــي خلــودٍ كخلودِ الأرباب، فبحثَ عن ثمرةِ البقاءِ في السَّــماءِ، وخدعــه إلــهٌ مــاكرٌ عن بُغيته فناوله بديلاً منها، ثمرةً تُشــبهها فــي ظاهرهــا ولكنهــا ثمــرةُ البقاء(١) وهذا بالفعل ظاهرُ النص التوراتي من خلال عرض قصة الخطيئة والغواية مع فارق بسيط.

ومما يؤكدُ أنَّ التوراةَ وغيرَها من مصــادرِ اليهــودِ اقتبســت هــذه المعتقداتِ والأفكارَ من الحضاراتِ القديمةِ ذلكَ التشابهُ الكبيرُ بينَ القَصَــصِ الفارسية وقَصَصِ التّلمودِ الخاصةِ بالخلقِ، يقولُ وول ديورانت(٢): فاللهُ خلقَ في بادئ الأمر إنساناً مكوناً من ذكرٍ وأنثى متصلَيْن من الخلــق كــالتوأمين الساميين، ثم رأي فيما بعد أن يفصلَ أحدَهُما عن الآخر(٣)ولعلَّ هناك نصــاً غريباً في سفر التكوينِ قد يفسرُ أيضاً بهذا المعني "يوم خلقَ اللهُ الإنسانَ على شبه اللهِ عَمِلَه، ذكراً وأنثي خلَقَه وباركَه ودعا اسمَه آدَمَ يوم خلق(٤)

ويؤكدُ أحدُ الباحثينَ هذه الحقيقةَ بقوله: ودخلت في العهدِ القديمِ الكثيرُ من القصص الأسطوريِّ الذي يعودُ بأصله إلى الشعوبِ التي عــاشَ بينَهــا

---

(١) اليهودية د أحمد شلبي ص ٢٥٨ــ ٢٥٩ ط ٨ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٨م، ولا يتفقُ الباحثُ كذلكَ مع ما ذكره د شلبي عن وصفِ الإلهِ بصفاتِ المَكرِ والخديعةِ حتى وإن كان ينقلُ بعضَ معتقداتِ البابليين، فهو باحثٌ مسلمٌ متخصصٌ في التاريخِ الإسلامي، وتاريخ الأديان، فكان ينبغي عليه وهو ينقلُ معتقداتِهم أن يبينَ مخالفةَ هذه المعتقداتِ للعقائدِ الإسلاميةِ القائمةِ على التنزيهِ الكاملِ والمطلق للذاتِ العليةِ من افتراءاتِ أصحابِ الأديانِ السّماويةِ المحرفة والوثنيين.

(٢) ولد ول ديورانت في نورث آدمز من أعمال نيوجيرسي بأمريكا ١٨٨٥م، وتلقي تعليمه في مدارسها الكاثوليكية، ثم في كلية القديس بطرس، ثم في جامعة كولومبيا بنيويورك، بدأ حياته مراسلاً لصحيفة نيويورك ١٩٠٧م، ثم ترك العمل بالصحافة لثقله على نفسه، ثم عمل مدرساً للغات، ثم ركز اهتمامه في الدراسة حتى نال درجةَ الدكتوراه في الفلسفة ١٩١٧م، بدأ بعد ذلك في إلقاء الدروس والمحاضرات في الفلسفة والأدب، وكانت هذه المحاضراتُ نواةً لإخراج كتابيه: قصة الفلسفة، وقصة الحضارة، وهما من أفضل كتبه. راجع: قصة الحضارة مج ٢ ج ٥ ص ٦٨ باختصار.

(٣) قصة الحضارة م ١ج ٢ ص٣٦٨.

(٤) سفر التكوين ١/٥-٢.

الإسرائيليونَ القُدامَى، ومن أهمِّ هذه القَصصِ: قصةُ الخلقِ الواردةُ في بداية سفرِ التكوين، وقصةُ الطّوفانِ، وبرج بابل، وأسطورة الحيّــة، وأســطورة مصارعة يعقوب للرب، فضلا عن الأساطير البطولية والتي ورد بعضُها في الأحداث المتصلةِ بتاريخ بني إسرائيل مثل: شمشون ودليلـــة، والأســاطير التعليلية المرتبطة بالأماكن والأعلام الــواردة فـــي التـــوراة علـــى وجـــه الخصوص مثل: تسمية آدم وحواء وإبراهيم وإسحاق ويعقــوب ويوســـف، وأيضاً الأماكن مثل: تسمية بيت إيل، وبئر سبع وبعض الآبار الأخرى[١].

أما قصةُ الجنةِ وما حدَثَ فيها من غوايةٍ فيقول وول ديورانت: إنهـــا مشابهة تماماً لكثيرٍ من القصصِ الشعبيةِ الموجودةِ عند عديدٍ من الشعوب " ففي معظم هذه الجناتِ أشجارٌ محرمةٌ وفيها كذلك أفاعٍ وهَوْلات سلبت الناسَ الخلودَ........كما أنَّ المرأةَ في معظمِ هذِه القصص هي الأداة التي تتخــذها الحية وسيلةً لإيقاعِ الإنسانِ في الشرّ"[٢] ولو قـــارنَ القـــارئُ بـــينَ الـــنصِّ التوراتيِّ وبينَ ما أشارَ إليه القرءانُ الكريمُ في تحديدِ مرتكبِ الـــذنبِ الأوّلِ أو الخطيئةِ الأُولي لوجَدَ أنَّ التوراةَ تُحمّلُ حـــواءَ وحـــدَها مســـئوليةَ هـــذه الخطيئة، فقد جاءَ في سفر التكوينِ أنَّ حواءَ " أكلَتْ وأعطتْ رَجُلَها أيضـــاً معها فأكل......فقال آدمُ: المرأةُ التي جعلتَها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ"[٣].

أما القرءانُ الكريمُ فينسبُ المسئوليةَ إليهما معاً، فهما متضامنانِ فـــي تحمُّلِ المسئوليةِ، يقول تعالى: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّـــا كَانَـــا فِيهِ" [٤] بل إنَّ آيةَ سورةِ طه نصت على أنَّ الشيطانَ وسوسَ إلي آدمَ وحده

(١) تاريخ الديانة اليهودية ص ٢٦١ د محمد خليفة حسن، نشر دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة ط الأولي ١٩٩٨م.
(٢) قصة الحضارة م ١ج ٢ ص٣٩٦.
(٣) سفر التكوين ٣/٦-١٢.
(٤) سورة البقرة من الآية ٣٦.

حيث يقول تعالى:" فوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى، فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوي"(١).

ولا شكَّ أنَّ تبرئةَ القرءانِ الكريمِ للمرأةِ على هذا النَّحوِ يرفعُ عنها لعنةً لحقَتْها عبرَ القرون، ويرفعُ عنها سُبّةَ الضَّعفِ المُطلقِ، والانهيارِ السَّريعِ أمامَ الغوايةِ، ولا يَخفَي أثرُ هذا الاتجاهِ على وضعِها في المُجتمعِ، وهذا بدَوْره يؤكِّدُ أنَّ نظرةَ القرءانِ الكريمِ للمرأةِ تُخالفُ النظرةَ التوراتيةَ التي يؤمنُ بها أهلُ الكتاب على حدٍّ سواء.

"والذي يتضحُ أنَّ فكرةَ الخطيئةِ المنسوبةِ إلى حواءَ قد تدرجت في اليهوديةِ على مرِّ الأيام، حتى جعلوا منها السببَ الذي أورث البشريةَ وزرَ هذه الخطيئة، وبسببها -على زعمهم- دخل الموتُ إلي العالم، لذا استحقت منهم حواءُ اللعنةَ الأبديةَ، حتى أصبحت في نظرهم "أمر من الموت" وجنحت السلطةُ الدينيةُ عندهم إلي اعتبار المرأة دونَ الرجل فجردوها من جميعِ حقوقها، وحكموا عليها أن تكونَ تحتَ سُلطةِ الرجلِ في مختلف مراحلِ حياتها إلي أنْ تموتَ(٢).

---

(١) الآيتان ١٢٠-١٢١.

(٢) حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرءان ص ٥٢ د فتنت مسيكة بزري مؤسسة المعارف- بيروت - لبنان ط الأولي ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

المبحث الثاني

التوبة من المعصية في اليهودية

اصطفي اللهُ بني إسرائيل، وفضَّلهم على العالمينَ في زمانِهم، لكنَّهم لم يقابلوا نعمةَ الاصطفاءِ بالشُّكر، بل قابلوها بالجُحودِ، فبدَلاً من أن يتوجَّهوا للإله بالعِرفَانِ، إذ جعلَ فيهم أنبياءَ وجعلهم ملوكاً، جعلوا منه مسخاً يرتبطُ بأهوائهم، فوقعوا في أعظمِ الذُّنوبِ وأكبرِها، ألا وهو الشركُ بالله، وكانت هذه أعظمَ خطاياهم.

وقد كانت الخطيئةُ هي الفكرةُ الأساسيةُ في الدّينِ اليهوديِّ، وكذلكَ كانت التوبة منها هي الشغلُ الشاغلُ للتشريعاتِ اليهوديةِ " ففي الفكرِ اليهوديِّ تكثُرُ الخطايا، ففي كلِّ شهوةٍ من الشهواتِ تكمُنُ الخطيئةُ، فالخطيئةُ تُدَنِّسُ المُخطئَ، والحيضُ والولادةُ كالخطيئةِ يُدَنّسانِ المرأةَ، ويتطلبَانِ تطهيراً ذا مراسمَ وتقاليدٍ وتضحيةً وصلاةً على يدِ الكهنة، والهِبَاتُ والقرابينُ هي الوسيلةُ للتكفيرِ عن الخطايا، وتُقَدَّمُ للكَهَنَةِ بعدَ الاعترافِ الكَاملِ بما ارتكبَ الإنسانُ من إثم" (١)

وعلى هذا كانَ المُجتمعُ اليَهُوديُّ مجتمعَ خطايا ومجتمعَ توبةٍ وتكفيرٍ وغفرانٍ في نفسِ الوقت، حتى إنَّ التاجرَ– كما يقول وول ديورانت– كانَ ولا يزالُ يُطففُ في الكيل، ويَغشُ في الميزان، ثم يُحاولُ التكفيرَ عن ذنبه بالتضحية والصلاةِ(١)

ويَذْكرُ سفرُ العددِ صورةً مفصلةً للمرأة التي تريدُ أن يُغفرَ لها شريطةَ أن تذهبَ للكاهنِ لتعترفَ عنده بخطيئتها....ويتلو عليها بعضَ الترانيمِ والأدعيةِ ثمَّ يطلب منها الاعترافَ.......فإذا اعترفت استطاعَ الكاهنُ أن يطهرَها بالقرابين والهباتِ والأدعيةِ(٢)

(١) اليهودية ص ٢٩٥.

(١) قصة الحضارة ٣/٣٥٤.

(٢) راجع: ٥/١١ وما بعدها.

هذا ويبرر اليهودُ كثرةَ الخطايا بـأن " الطبيعـة البشـرية ضـعيفة (والسنن) معقدة صعبة، فلم يكن ثمةَ مفرٌ من الوقوع في الخطيئة[٣]، ولمـا كانت الخطيئةُ كامنةً في كلِّ شهوةٍ من الشَّهَواتِ في الدِّينِ اليهوديِّ" أصبحت الهباتُ والقرابينُ والأدعيةُ هي الوسيلةُ للتكفيرِ عن الخطايا[٤] وقلَّما كانـت هناكَ خطيئة لا يُمكِنُ التكفيرُ عنها بهذه الوسيلة[٥]

مراسم تكفير الخطايا: وعلى هذا فيُمكنُ في اليهودية اتقاء الخطيئـة ونتائجها بالصلاة -حسب شريعتهم- والتضحية بـالقرابين "وكـان تقـديم القرابين طقسا رئيسا في عبادة اليهود، وكان الذي يقوم بتقديمها ربُ العائلةِ عن نفسه وعن عائلته.... حتى جاءَ (سيدُنا) موسى-عليه السلام- فرسَـمَ لليهـودِ نظاماً دقيقاً مفصلاً لتقديم القرابين، وقصرَ تقديمَها علـى الكهَنَـةِ وحـدَهم، يُعَاونُهم اللاويون[١]، وبذا "لم يكن أحدٌ غير الكهنةِ يَستطيعُ أن يقربَ القرابين بالطريقةِ الصحيحةِ أو يفسرَ الطقوسَ أو الأسرارَ الدينيةَ تفسيراً آمنـاً مـن الخطأ[٢].

يقولُ صاحبُ كتابِ المجتمعِ اليهوديِّ معللا تقديمَ القرابينِ عندَ اليَهُودِ بأنها كانت تُقدَّمُ لله تعبيرا عن: اعترافِهم بخطاياهم، أو توبتِهم عن ارتكابها، أو شُكْرِهم لله، أو تكريسِ أنفسهم لخدمته.....وكانوا يقدمونها من الحيواناتِ

---

(٣) قصة الحضارة م١ ج٢ ص٣٤٥.

(٤) اليهودية ص ٢٩٥ بتصرف.

(٥) قصة الحضارة م١ ج٢ ص ٣٤٦.

(١) راجع: المجتمع اليهودي ص ١٨٥ زكي شنودة، مطبعة الخانجي، القاهرة. واللاويون هم: كل نسل سبط لاوي عدا ذرية هارون عليه السلام، كان يقوم على أكتافهم كل خدمة المعابد، وكانوا ينقسمون من حيث اختصاصهم إلي أربعة أقسام (قسم القضاة والكتبة، مساعدو الكهنة في خدمة الهيكل، الموسيقيون الذين يقومون بالترتيل والترنيم في الهيكل، البوابون المكلفون بالحراسة) للمزيد يراجع: الإسلام واليهودية (دراسة مقارنة من خلال سفر اللاويين) د عماد على عبد السميع، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١ ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

(٢) قصة الحضارة م١ ج ٢ ص ٣٤٦

المستأنسة[١] التي تقضي الشريعةُ بطهارتها، وكان مقدمُ الذبيحة يضعُ يــده على رأسها ويعترفُ بخطيئته ثم يذبحها[٢]

أما عن نوعيةِ القرابينِ التي كانوا يُقدِّمونها فقد كانت عديدةً منها:

١ - المحرقات[٣]: وكانوا يقدمونها صباحَ ومساءَ كلِّ يومٍ تكفيراً عن الخطايا فكانت هذه المحرقة الدائمة، إذْ جاءَ في سفر الخروج: " وهذا ما تُقدِّمُه على المذبح، خروفان حوليان كل يوم دائماً، الخروف الواحد تقدمه صباحاً، والخروف الثاني تقدمه في العشية...محرقة دائمة في أجيالكم[٤]

٢ - ذبائح السلامة[٥]: وكانوا يقدمونها طلباً للرضا من الله، أو تعبيراً عن الشكر لله.

٣- ذبائح الخطيئة[٦]: وكانوا يقدمونها للتكفير عن خطاياهم التي يرتكبونها، ولم يكن مسموحاً لمقدمي ذبيحة الخطيئة أن يــأكلوا أيَّ جــزءٍ منهــا. وتتميز هذه الذبيحةُ من الناحية الطقسية عن غيرها من أنواع الــذبائح برش الدم على قوائم بيت الله، وعلى زوايا المذبح الأربع..... وحــرق الجثة خارج المكان عندما يكون سبب تقديم هذه الذبيحة وقوع جماعــة من اليهود في الخطيئة[٧].

---

(١) الحيوانات المستأنسة ككون القربان من البقر أو الغنم أو المعز، أو اليمام والحمام إن كان القربان حيوانياً، انظر سفر اللاويين: ١: ١٠، ١: ١٤، ٢٢: ١٩، ٥: ٧.

(٢) المجتمع اليهودي ص ١٨٥- ١٨٦ وراجع: سفر اللاويين (١: ٥)

(٣) المحرقة في العبرية (عولاه) وتعني: الصعيدة على المذبح، باستثناء الجلد ومحتويات الأمعاء، ولا يؤكل منها شيئ، وهي نوع من القرابين التي كان اليهود يقدمونها طلباً للرضا من ربهم، ولها أنواع كثيرة. راجع: تفسير سفر اللاويين ص ١٤ نجيب جرجس، ط مدارس الأحد، القاهرة، ط١ ١٩٩٨م.

(٤) الإصحاح ٣٨/٢٩ -٤٣.

(٥) سميت بهذه التسمية لأنها كانت تقدم للشكر في ظروف الفرح والنجاح، كما يقدمها الإنسان لأجل خير يرجوه، أو لخير ناله، وتقدم فردية وكذلك عن الشعب، وهي قديمة العهد قبل شريعة موسي (عليه السلام) تفسير سفر اللاويين ص ٣٠ نجيب جرجس.

(٦) وهي الذبيحة التي يقدمها الإنسان عن الخطايا التي يصنعها، قاموس الكتاب المقدس ص ٧٢٢.

(٧) راجع سفر اللاويين ١/ ٢- ١٣

٤ – ذبائح الإثم [١]: وكانوا يقدمونها في الغالب عن الخطايا الشخصية التي تحدث سهواً، وتكون هذه الذبائح غالباً من الكباش[٢].

وقد قضت الشريعةُ اليهوديةُ بتقديمِ القرابينِ السابقِ ذكرُها وبأنواعها المختلفة "لتذكير اليهود بخطاياهم، وللتكفير عنها إرضاءً لقداسة الله التي ترفضُ الخطيئةَ، ولكن اليهودَ اتخذوها على العكس مبرراً لارتكاب الخطايا، ما داموا يستطيعون التكفيرَ عنها، واجتناب القصاص الذي تستوجبه[٣].

ويتفقُ الباحثُ مع مؤلفِ كتابِ المُجتمعِ اليهوديِّ فيما قرره آنفا لأنَّ مراسمَ الخلاصِ من الذنبِ في اليهودية لا تساعدُ على التخلص أو السير في طريق الخلاص منه، بل هي مراسم تعينُ المذنبَ على الاستمرار في جريمته، إذ تخلصه فقط من مجرد الضيق لارتكاب خطئه.

شرط التكفير عن الذنب: وشرطُ التكفير عن الذنب في اليهودية أن يقومَ بمراسم التكفير شخصٌ من نسل هارون[٤]، وقد حدث أن جماعةً ثارت على هذا الامتياز الخاص بأبناءِ هارونَ وكانت الثورةُ بقيادةِ رجلٍ يُسمي: قورح بن بصهار، وكان معه مئتان وخمسون رجلاً، والنتيجة: ضربة قاصمة حيث " انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرضُ فاها وابتلعتهم وبيوتَهم.... وخرجت نار من عند الرب وأكلت المائتين وخمسين رجلاً الذين قربوا البخور...."[٥].

---

(١) أوجز سفر اللاويين في حديثه عن ذبيحة الإثم، فلم يذكر منها إلا أنها تذبح في المكان الذي تذبح فيه المحرقة، وأن يرش الدم على المذبح بطريقة دائرية. راجع سفر اللاويين ٧: ١ـــ ٥.

(٢) سفر اللاويين ٥/ ٥ – ١٩، ١/١٠(**وَإِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مِنَ الْغَنَمِ الضَّأْنِ أَوِ الْمَعْزِ مُحْرَقَةً، فَذَكَرًا صَحِيحًا يُقَرِّبُهُ))**

(٣) المجتمع اليهودي ص ٢٦٥، وانظر كذلك: اليهود تاريخ وعقيدة ص ١٨٥ وما بعدها د كامل سعفان، نشر دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨١م

(٤) هارون بن عمران أخو سيدنا موسي عليهما السلام وهو الذي جعله الله وزيراً لموسى ومساعداً له في دعوته بني إسرائيل وإخراجهم من مصر.

(٥) راجع سفر العدد ٣٠/١٦ – ٣٥

وتقدمُ التوراةُ تبريراً لهذا الجزاءِ فتقول: " لكيلا يقتربَ رجل أجنبي ليس من نسل هارون ليبخر بخوراً أمام الرب "(١).

يوم التكفير والغفران: وتطلب المغفرة فيه عن الذنوب التي ارتكبها اليهودُ في صلاة جماعية يؤديها الكهنةُ، ويمكن القيامُ بها في أيِّ وقتٍ من السنة، لكن يومَ التكفير يتميز بتمسك اليهودِ فيه إذ يمضون اليومَ كلَّه في الصلاة والصيام، ويسبقه تسعةُ أيامٍ من التوبةِ عما فعلوا طوالَ العام من آثام، وهذا اليوم يكون في الشهر السابع من السنة اليهودية(٢).

وهكذا يتبينُ أنَّ الخلاصَ من الذنبِ يكونُ بتقديم المحرقات والهدايا للكهنةِ، ثم بالصلاةِ الموسميةِ التي تقام في أوقاتٍ معينةٍ من السنة، وكل هذه الأمور لا تضمنُ للمذنب خلاصاً حقيقياً من الذنوب، بل هي تريحُ أعصابه إذا توترت لارتكابه ذنباً، وتعطيه صك الأمان إلى أنه في أي وقت يستطيع أن يتحول إلى إنسانٍ طاهرٍ عفيفِ النفس مهما ارتكبَ من آثام أو اقترف من خطايا، وذلك بفضل ما تعطيه له ديانتُه من آمالٍ عراضٍ في الصفاء.

---

(١) سفر العدد ٤٠/١٦

(٢) التقويم اليهودي تقويم معقد جداً، وسبب ذلك أن حساب الشهور يتبع الدورة القمرية، (فالشهر إما ثلاثين أو تسعة وعشرين يوماً) وبذلك تصبح السنة ٣٥٤ يوما، في حين أن السنين تتبع الدورة الشمسية، ليستطيعوا الاحتفال بالأعياد الزراعية في مواسمها، والفرق بين الحسابين أحد عشر يوماً، فكان لابد من تعويض هذا الفرق في عدد الأيام ليتطابق الحسابان مرة كل عشرين عاماً، فأضافوا شهراً مدته ثلاثون يوماً في كل عام ثالث وسادس وثامن وحادي عشر ورابع عشر وسابع عشر وتاسع عشر من هذه الدورة العشرينية لتصبح سنتهم الكبيسة ثلاثة عشر شهراً (الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ص ١٨٤ د حسن ظاظا، ط ٣ دار القلم، دمشق١٩٩٥م، ومن أسباب تعقيد التقويم العبري سبب شعائري بحت، فمثلاً لا يمكن أن يقع عيد الغفران أو عيد رأس السنة قبل أو بعد يوم السبت، ولذلك فقد تؤجل بداية السنة عندهم يوماً أو يومين حسب الأحوال، فتصبح السنةُ اليهوديةُ العادية ٣٥٣ يوماً أو ٣٥٤ يوماً أو ٣٥٥ يوماً، أما السنةُ الكبيسةُ فيزيدون عليها شهراً كاملاً فتصبح ٣٨٣ أو ٣٨٤ أو ٣٨٥ يوماً، والشهر السابع من التقويم العبري هو شهر نيسان ويقابله في التقويم الميلادي شهرا مارس وأبريل. انظر: موسوعة اليهود واليهودية ٢٥٧/٥ بإيجاز يسير د عبد الوهاب المسيري ط ١، دار الشروق القاهرة ١٩٩٩م.

وأخيراً: فالملاحظُ من هذا العرض للخطيئة والتكفير عنها أن اليهوديةَ في تقديمها لهما قاصرة في عدة جوانب منها:

١- أنَّ الطريقَ إلى التوبةِ والخلاصَ من الذنوب بعيد بُعداً تاماً عن خط العلاجِ الصَّحيحِ، بل إنه مناسبٌ لتعميقِ الخطيئةِ والاستراحةِ والركونِ إليها، فهو لا يضمنُ ردَّ الحقوقِ إلى أصحابها وتركَ الخطأ إلى الصواب.

٢ـ أن الخطأ والذنب في عرف اليهودية أمر لم يتنزه عنه أحد حتى الأنبياء، بل والذات العلية الإلهية - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[١].

(١) الذي يطالع الكتابَ المقدس -عند اليهودِ والنصارى- وخاصةً العهد القديم يجد فيه أوصافاً مشينةً ومذريةً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام كوصفِ نوحٍ عليه السلام بكشف عورته، ووصف لوطٍ عليه السلام بشرب الخمر والزنا بابنتيه، واتهام هارونَ عليه السلام بأنه الذي صنع العجل وغيرها من الأوصاف التي يخجل الإنسان أن يصف بها إنساناً عادياً فضلاً عن أن يكون نبياً مرسلاً، وكذلك وصف الذات العلية بصفات البشر كحبه للطعام والشراب على الموائد، وتعبه واستراحته من عملية الخلق، وظهوره في صورة سحاب، وحبه لشعب إسرائيل وحده............ مما يؤكدُ أنَّ هذا الكتابَ ليسَ كتاباً مقدساً كما يدعي أصحابه المؤمنون به من أهل الكتاب.

المبحث الثالث
الخطأ والذنب في النصرانية

تمهيد:

في الحقيقة إنَّ ارتكابَ الذنبِ والتكفيرَ عنه في الديانةِ النصرانيةِ مسألةٌ في قمةِ التعقيدِ والتشابُكِ، فللنصرانية فلسفةٌ خاصةٌ، وتصورٌ معين لهذه القضيةِ يختلفُ عن جميعِ التَّصوراتِ التي نزلت بها الشرائعُ السَّماويةُ... من لدن آدمَ -ـ عليه السَّلام - فقد أصبحت النصرانيةُ نظاماً فريداً يصعُبُ على الأفهامِ تصوُّرَهُ، ويصطدمُ فيه العقلُ بكثيرٍ من العقباتِ، وإن الباحثَ والقراءَ الكرامَ في هذا المبحثِ الخاصِّ المتناولِ للذنوبِ المستوجبةِ للتوبةِ في النصرانيةِ ليسوا أمامَ خطأ يرتكبهُ الأفرادُ ثم يحاولونَ التكفيرَ عنه بمساعدةٍ إلهيةٍ، بل إنهم أمامَ لغزٍ بشريٍّ اسمه: الخطيئة الأبدية، تلك الخطيئةُ التي التصقت بجميع البشر عندما ارتكبَ آدمُ - عليه السَّلامُ -ـ المعصيةَ وأكلَ من الشجرةِ المحرَّمةِ، وللعجب أن هذه المعصيةَ لا يكفرها إلَّا دمٌ إلهيٌّ، حتى لا يموتَ آدمُ وأولادُه موتاً أبدياً.

وهذه المعصيةُ -في العقيدة النصرانية- لم تلتصق بآدمَ -عليه السلام- وحده، بل توارثَها أبناؤه من بعده جيلاً بعدَ جيل، ولم يكن أمامَ الخالقِ سبحانه وتعالى -إزاءَ هذا التعقيدِ- إلَّا أن يحلَّ المسألةَ حلَّاً جذرياً لا تجد المعصيةُ معه مفراً من أن تستحييَ وتتركَ البشريةَ فماذا عليه أن يفعل؟

زعموا أن الله-عز وجل- أرسلَ ابنَه إلى الأرض، ووكلَ إليه المهمة، فما عليه إلا أنْ يستسلمَ لليهودِ كي يصلبوه ويقتلوه شرَّ قِتلة، وبهذا وحدَه تتطهرُ البشريةُ من الذنبِ، وتنجو من المعصية، وتتبرأُ من الخطيئةِ التي ارتكبها آدمُ وجرَّتهم إلى الجحيم.

وقد يتساءلُ البعضُ عن السِّرِّ في فصلِ الحديثِ عن المعصيةِ والتوبةِ عندَ اليهودِ عنهُما لدَي النصارى، وكانَ من المُمكنِ تناوُلهما في إطارٍ واحدٍ تحتَ عنوانٍ واحدٍ مثلاً: التوبةُ في الكتابِ المقدَّسِ-عندَ اليهودِ والنصارى-

وموقفُ الإسلامِ منها، إذْ أنَّ النصارى يؤمنون بالتوراةِ ويعتبرونَ الأناجيــلَ جزءاً متمماً لها.

والجوابُ علَى ذلك: أنَّ النصارى وإنْ كانُوا يؤْمنونَ بــالتوراةِ، فــإنَّ اليهودَ لا يؤمنونَ بالإنجيلِ –أو الأناجيل– وعندَهُم التلمودُ متممٌ لشــريعتِهم، واليهودُ ملتزمونَ بتقديمِ القرابينِ حسْبَ الثابتِ عندَهُم، أمَّا النَّصَــارى فــلا يعترفونَ بالتلمودِ، ثم إنهم وإن كانوا يعترفونَ بالتَّوراةِ، إلَّا أنَّهم لا يلتزمــونَ بكثيرٍ مما جاءَ فيها، فمثلاً: الختانُ غيرُ ضروريٍّ عندَ النَّصارى وهو فــي التوراة، ولا يلتزمون بالسبت، كما أنهم لا يقدمون الذبائحَ والقرابين حسب ما هو موجودٌ في التوراةِ، أو العهدِ القديمِ كما يحلو لهم تسمِيَتُه، لهذا كان هناك اختلافاً جذرياً بين الفريقين، فآثر الباحثُ أن يكونَ لكُلِّ فريقٍ جانبٌ خــاصٌ في هذا البحثِ.

المطلب الأول

أساس قضية الخطيئة عند النصارى

ترتكزُ عقيدةُ النصارى على الخطيئةِ الأُولَى التي أخذتها من قصةِ التوراةِ في موضوع: خطيئةِ آدمَ وخروجِه على إثرها من الجنة، وبناءً على هذهِ القصةِ تبني النصرانيةُ عقيدَتَها في هذه المسألةِ فيقولُ النَّصارى: إنَّ الإنسانَ الأولَ سقطَ في عثرةِ العِصيْانِ، وبسقوطه هذا أصبحَ واقعاً تحتَ حكمِ الموتِ، الذي أنذره الله تعالى به عندما وضعهُ في جنةِ عدنٍ، كما أنه قد خسر كماله الأدبي الذي خلقه الله عليه، وأصبحَ خاضعاً لناموس الفسادِ وسُلطانِ الخطيئةِ، ولما كان الشوكُ لا يثمرُ تيناً، فقد صار جميعُ نسْلِ هذا الإنسانِ الأول فاسداً كفسادِه، واقعاً مثلَه تحتَ حكم الموت(١).

إذن فالنصرانيةُ تعتقد أن الموتَ الجسدي سببه خطيئة آدم التي ورثها البشر بالتناسل منه، وأن آدم لو لم يأكل من الشجرة ويخطئ لمَا ماتَ، ولمَا ماتَ البشرُ من بعدِه، وتعتقدُ كذلكَ أنَّ الموتَ ليسَ من صنعِ اللهِ، لأنَّ اللهَ خالدٌ، وقد خَلَقَ الإنسانَ على صورته خالداً أيضاً، إذن فالمحورُ الذي ترتكزُ عليه العقيدةُ النصرانيةٌ: أنَّ خطيئةَ آدمَ ترتَّبَ عليها الموتُ له ولذريته من بعدِه، وهذه المعاني تفيضُ بها رسائلُ بولس(٢)، فقد ورد في رسالته إلي أهل

(١) المسيحية في الإسلام ص ١٥٩ إبراهيم لوقا، مطبعة النيل المسيحية، ط الأولي ١٩٣٨ م.

(٢) ولد بولس في مدينة طرسوس في كيليكية الواقعة في آسيا الصغرى (تركيا اليوم) في فترة محتملة غير مؤكدة بين السنة الخامسة والعاشرة من الميلاد كان اسمه عند الولادة: شاول وترعرع في كنف أسرة يهودية منتمية لسبط بنيامين بحسب شهادته في رسالته إلي أهل روما، عمل في بداية حياته على محاربة المسيحية الناشئة على أنها فرقة يهودية ضالة تهدد الديانة اليهودية الرسمية، ثم انقلب رأساً على عقب وهو في طريقه إلي دمشق ـــ حسب رواية العهد الجديد في سفر الرؤيا ـــ وأعلن اعتناقه للنصرانية، وأصبح من كبار الداعين إليها، (الموسوعة الحرة) (www.wikipedia.org) لكن بولس في الحقيقة هو الذي غير المسيحيةَ الحقة من ديانة توحيدٍ إلي ديانةِ تثليثٍ، وهو الذي غير وبدل كلَّ المعتقداتِ الصحيحة التي جاء بها المسيح عليه السلام، وهو صاحبُ فكرةِ الصلب والفداء، وقد أدخل إلي النصرانية بعضَ تعاليم اليهود، وأدخل إليها صوراً من فلسفة الإغريق، وأصبحت النصرانيةُ تنسب إلي بولس أكثر من نسبتها إلي المسيح عليه السلام. راجع: المسيحية ص ١١١ وما بعدها، والصفحات التالية في هذا المبحث.

رومية: "٢٣لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا[(١)].

يقول الأب متي المسكين[(٢)]: ووقع آدمُ تحتَ الحكمِ الإلهيِّ، وأخذَ عقابَ اللعنةِ وهي الحرمانُ من نعمةِ الله، والموتُ، وهو التوقفُ عن مسيرة الخلود...وسلم آدمُ ذريتَه هذه الطبيعةَ.....قابلة للموت بمعني توقفها عن الخلود (أي الحياة الأبدية) [(٣)].

وهكذا تعتقدُ النصرانيةُ: أنه منذُ أنْ ذاقَ الإنسانُ الشقاءَ على الأرضِ، وألمَّت به المصائبُ، وعيَ جيداً أنها كانت ثمناً لعصيانه، وجزاءً وفاقاً لإثمه وخطاياهُ، ولكن كيف يعودُ الإنسانُ، وكيف يحققُ حُلْمه بعدَ اغترابهِ الطَّويلِ؟ هل يشعرُ الإنسانُ بضرورة الخلاص؟ وإن كان لابدَّ منه فكيفَ يتمُّ وعلى يدِ مَنْ؟

يجيبُ النصارى على هذه التساؤلاتِ بقولهم: " إن الله تعالى اختارَ بملءِ حُريتِهِ أن يحققَ خلاصَ البشريةِ بوسَاطة يسوعَ المسيحِ، وأنه تعالى لم يكتفِ بأنْ جسَّد كلمته في يسوعَ، بل أرادَ أن تكونَ لأفعالِ يسوعَ قدرة خلاصية خاصة[(٤)] يقول بولس: وَلَكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا[(٥)].

---

(١) ٦: ٢٣.

(٢) اسمه: يوسف إسكندر ولد عام ١٩١٩م بمدينة بنها بمحافظة القليوبية، وكان من عائلة غنية، تخرج من كلية الصيدلة عام ١٩٤٣م، وفي عام ١٩٤٨م باع كل ما يمتلك وترهبن في دير الأنبا صموئيل العامر بصعيد مصر، ألف العديد من الكتب أولها: حياة الصلاة الأرثوذوكسية ١٩٥٢م، توفي عام ٢٠٠٦م.الموسوعة الحرة (www.wikipedia.org)

(٣) في شرح رسالة القديس بولس إلي أهل رومية ص ٩١، مطبعة القديس أنبا مقار، ط الأولي ١٩٩٢م.

(٤) الديانة المسيحية ص ٩١ نهي نجار، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط الأولي، ١٩٩٥م.

(٥) رسالة بولس إلي أهل رومية (٥ – ٨).

وأساسُ هذا الأمر عند النصارى – كما يزعمون- "أنَّ من صفاتِ الله العدل والرحمة، وبمقتضي صفةِ العدلِ كانَ على الله أن يعاقبَ ذريةَ آدمَ بسببِ الخطيئة التي ارتكبَها أبوهم، وطرد بها من الجنة، واستحقَّ هو وأبناؤه البُعدَ عن الله بسببها، وبمقتضي صفةِ الرَّحمةِ كانَ على الله أن يغفرَ سيئاتِ البشر، ولم يكن هناكَ من طريقٍ للجمعِ بينَ العَدْلِ والرَّحمة إلا بتوسُّطِ ابنِ الله ووحيدِه وقبوله أن يظهرَ في شكلِ إنسانٍ، وأن يعيشَ كما يعيشُ الإنسانُ، ثم يُصلب ظلما ليكفر عن خطيئة البشر(١) وقد وردَ في العهدِ الجديدِ ما مفهومه: إنَّ ابنَ الإنسانِ قد جاءَ ليُخلِّصَ ما قد هلك، فبمحبتِه ورحمتِه قد صنعَ طريقا للخَلاصِ، لهذا كانَ المسيحُ هو الذي يُكفرُ عن خطايا العالم، وهو الوسيطُ الذي وفَّقَ بينَ محبَّةِ اللهِ وبينَ عَدْله ورحمتِه، إذ أنَّ مقتضى العدلِ أنَّ النَّاسَ كانوا يستمرونَ في الابتعادِ عن الله بسببِ ما اقترفَ أبوهم، ولكن باقترانِ العدْلِ والرحمة، وبتوسُّطِ الابنِ الوحيدِ، وقبولِه للتكفيرِ عن خطايا الخلق، قرّبَ الناسَ من الربِّ بعدَ الابتعاد(٢).

ولكلِّ عاقلٍ منصفٍ أن يسألَ النصارى: ألا تعدُّ وراثةُ الذَّنبِ نوعاً من الظُّلمِ لا تَليقُ نسبتُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؟ وعلى الرَّغم من ذلكَ فإنَّ هذا المعتقدَ لا دليلَ عليه في التوراةِ التي أخذَ النصارى منها هذه العقيدةَ، بل إنَّ الدّليلَ قام على خِلافِ ذلكَ، إذْ جاءتْ النصوصُ تَنفي وراثةَ الذنبِ، وتؤكدُ على مسئوليةِ كلِّ إنسانٍ عن عَمَلِه ومنها:

(النفسُ التي تخطئُ هي تموتُ، الابنُ لا يحملُ من اثم الأب، والأبُ لا يحملُ من اثم الابن، برُّ البارِّ عليه يكونُ، وشرُّ الشريرِ عليه يكون(٣) وجاء كذلك في سفر التثنية: (لا يقتلُ الآباءُ عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن

(١) المسيحية ص ١٥٩ نقلا عن: الإنجيل والصليب ص ٦-٧ عبد الأحد داوود.

(٢) راجع: إنجيل مرقص ١٠- ٤٤ وما بعدها، ويوحنا: ٣- ١٦، ورسالة بولس إلي أهل رومية: ٣- ٢٣ وما بعدها، و ٥ – ١٠ وما بعدها، والإصحاح السادس منها.

(٣) سفر حزقيال: (١٨/٢٠ـــ ٢١)

الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل)[١] وفي سفر إرمياء: (بل كل واحد يمـــوت بذنبه، كل إنسان يأكلُ الحصرمَ تضرس أسنانه)[٢] وجاءَ في سفرِ التّكوينِ ما نصُّه: (أفتهلك البار مع الأثيم، عسى أن يكون خمسون باراً فـــي المدينـــة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر: أن تميت البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم. حاشـــا لك، أدَيَّان كلِّ الأرض لا يصنعُ عدلاً"[٣] ثم كيف لهم بعد هـــذه النصـــوصِ الواضحاتِ أن يتحدثوا عن التوفيق بين صفتي: العدلِ والرحمةِ، حتى يصفوا اللهَ بما لا يليقُ بذاته ؟ فعدلُ اللهِ –ﷻ– واضحٌ في هذِه النُّصوص، وهو أنـــه يعاقبُ المخطئَ على خطيئته، دونَ أنْ تتعدَّى الخطيئةُ صاحبَها إلى غيـــره، مهما كانت صلةُ القرابةِ بينهم، وهذا هو عينُ العدْلِ، وفي عقابِ المخطـــئِ رحمةٌ به في نفسِ الوقت، حتى يلقى اللهَ –ﷻ–ـ يومَ القيامةِ ولـــيسَ عليـــه ذنبٌ.

(١) (١٦: ٢٤) وأخبار الأيام الثاني: (٢٥:٤)
(٢) (٣٠: ٣١)
(٣) (٢٣: ١٨ ــــ ٢٥)

المطلب الثاني

تأثر النصرانية بالمعتقدات والأفكار القديمة والوثنية

تبين فيما سبقَ أنَّ فكرةَ الخطيئةِ والمعصيةِ في اليهوديةِ كانت مقتبسةً من عقائدِ الشعوبِ التي خالَطَهَا اليهودُ، ومن المؤكَّدِ أنَّ هذه الفكـــرةَ أيضـــاً مستوردةٌ عند النصارى، فقد انتقلت إليها من دياناتٍ وأفكارٍ وفلسفاتٍ متعددةٍ كما هو الشأنُ في اليهودية، "فالبرهميون يعتقدون أن كرشـــنا وهـــو الإلـــه (فشنو) قد خلَّصَ الإنسانَ بتقديمِ نفسِه ذبيحةً عنه، ويصورون فشنو مصلوباً مثقوبَ اليدَيْنِ والرِّجْلَين وعلى قميصِه صـــورةُ قلـــبِ الإنســـانِ معلقـــاً"[١]، ويصفونه بأنه البطلُ الوديعُ المملوءُ ألوهيةً لأنه قدَّمَ شخصَهُ فداءً للخليقةِ عن ذنبِها الأوَّلِ[٢].

أليست هذه معتقداتُ النصارى في قضية الخطيئة وطريقة التوبة منها والتكفير عنها؟ ثم أليسَ هذا ما يقولُه النصارى في المسيحِ عليه السَّلامُ؟

وكما كانتْ فكرةُ التثليثِ في النصرانيةِ من ابتداعِ بولس فها هـــو ذا شاهدٌ من أهْلِهَا[٣] يعيدُ الحقَّ إلي نِصَابهِ، ويُعلنُ في جُرأةٍ أنَّ بولسَ هو مبتدعُ هذه الفكرة، وقد حَمَلَ هو وتلميذُه لوقا[٤] لواءَ الدَّعوةِ إليها، وفيما يلي نـــصّ كلامه: ومما لا شكَّ فيه أنَّ الفكرةَ الأساسيةَ التي ملكت على بولسَ مشاعرَه فعبر عنها في رسائله بأساليبَ مختلفةٍ، هي فكرةُ رفقِ الله بالبشـــر، وهـــذا الرفقُ بهم هو ما حمله على إقالتهم من عثارهم، فأرسلَ إليهم ابنَـــهُ الوحيـــدَ

---

(١) الأسفار المقدسة ص ١٣٠ د/على عبد الواحد وافي.

(٢) مقارنة الأديان (الأديان القديمة) ص ٢٤ للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

(٣) الأب إلياس الخوري.

(٤) أصله: لوكيوس،، ولوقا اختصار للكلمة اللاتينية: لوقانوس، وتعني هذه الكلمة: حامل النور أو المستنير، وهو ثالث الإنجيليين، وكاتب سفر: أعمال الرسل، ورفيق بولس في أسفاره، ولا يمدنا التاريخ بمعلومات عن حياته السابقة قبيل تعرفه على بولس، ولد في أنطاكيا (سوريا) وارتبط لوقا مع بولس بصداقة قويةٍ جداً، كتب لوقا إنجيلَه على الأرجح بين عامي ٥٨ ـــ ٦٣ م، وقد كان لوقا طبيباً يمارسُ مهنةَ الطب، ولذلك كان يسمي: بلوقا الطبيب، يقال: إنه مات سنة ٨٤ م ببلاد اليونان. http://st-takla.org/Saints/Coptic-Orthodox-Saints-Biography/Coptic-Saints-Story_1532.html

ليفتديَهم على الصليب، وينتقلَ بهم من عهد الناموس الموسوي إلـــي عهــدِ النعمة، وهي الفكرةُ عينُها التي هيمنت على إنجيل لوقا(١).

ويؤكِّدُ أحَدُ الباحثينَ هذه الحقيقةَ بقوله: ومن المؤكَّدِ أنَّ بولسَ الـــذي أعلنَ اعتناقَهُ للمسيحيةِ بعدَ نهايةِ المسيحِ على الأرض "هو صـــاحبُ فكـــرةِ سفك دم المسيح كفارةً عن خطايا البشر، وهو الذي روَّجَ لها في رســـائله.. فلقد كان الصلبُ وسفكُ الدم هو ما عزم بولسُ على ألَّا يعرفَ من المسيحيةِ شيئاً غيرَه(٢) وهو يقرر ذلك في رسالته الأولي إلي أهل كورنثـــوس حيـــث يقول: " لأني لم أعزم أن أعرفَ شيئاً بيـــنكم إلَّـــا يســـوعَ المســـيح وإيـــاه مصلوباً"(٣).

ويؤكدُ د أحمد شلبي(٤) هذه الحقيقةَ بأنَّ بولسَ استمد عناصرَ ديانته من الثقافاتِ الأجنبيةِ التي كان بولسُ على علمٍ واسعٍ بها، وهو ينقل كلامه عـــن Wells (٥) حيث يقول: "وقد أوتي بولس قوةً عقليةً عظيمةً، كما كان شـــديدَ الاهتمام بحركاتِ زمانِه الدينية: فتراهُ على علمٍ عظيمٍ باليهوديةِ والميثرائيةِ(٦) ديانةِ ذلك الزمان التي تعتنقُها الإسكندرية، فنقلَ إلي المسيحيةِ كثيـــراً مـــن

(١) المسيحية ص ١٦١.

(٢) الميزان في مقارنة الأديان ص ٢٢٣ محمد عزت الطهطاوي، مكتبة النهضة المصرية، ط الرابعة، ١٩٧٣م.

(٣) الرسالة الأولي إلي أهل كورنثوس (٢-٢).

(٤) تلقي تعليمه في الأزهر وفي كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وجامعة لندن وجامعة كمبردج، اشتغل بالتدريس في جامعة القاهرة حتى وصل إلي درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، زار كثيراً من بلدان العالم محاضراً منتدباً وزائراً، وله العديدُ من المؤلَّفاتِ العلميةِ التي تربو على أكثرَ من خمسينَ مؤلَّفاً، ترجمته على ظهر مؤلفاته وخاصة اليهودية والمسيحية.

(٥) هو: هربرت جورج ويلز، أديب، صحفي، عالم اجتماع، ومؤرخ إنجليزي: ولد في بروملي التابعة لمقاطعة كنت في انجلترا في ١٨٦٦/٩/٢١ م، بدأ دراسته في مدرسة: ميدهيرست ولم يكمل تعليمه، كاتب روايات من الخيال العلمي، وله مؤلفاتٌ أخري عديدةٌ خاصة بالتنبؤ المستقبلي، وله كتاب: موجز تاريخ العالم ١٩٢٠ م، ومعالم تاريخ الإنسانية وغيرهما من المؤلفات، توفي في ١٩٦٤/٨/١٣ م.

(٦) هي إحدى أقدمِ الدياناتِ في العالم، ظهرت كتاريخ ومعتقدات بين الشعوب الهندو أوربية (الآرية)، وعن طريقهم انتشرت في منطقة غرب آسيا ومنها إلي كردستان، والميثرائية كعقيدة قديمة جدا قد أثرت بشكل كبير على معتقدات الديانات الأخرى في المنطقة، وما تزال بعض معتقدات الكُرد الحالية من بقايا معتقدات الميثرائيين، وانتشرت الميثرائية رويداً رويداً في جل المناطق ذات الحضارة، ووصلت إلي اليونانيين، ومنهم إلي الرومان، وإثر ذلك أصبحت الميثرائية ديانة قائمة بذاتها وخاصة في المائة الأولي والثانية بعد الميلاد، وفي المائة الثالثة وقعت في صراع مع الديانة المسيحية. www.http//gulbihar.yoo7/.com-topic

أفكارِهم ومُصْطَلَحِ تعبيرهم....ولكنَّهُ علَّمَ النَّاسَ أنَّ عيسى لم يكن المسيحَ الموعودَ فحسْبُ، بل إنه ابنُ الله نزل إلي الأرض ليقدمَ نفسَهُ قرباناً ويُصلَبَ تكفيراً عن خطيئةِ البشر، فموتُهُ كان تضحيةً مثلَ مماتِ الضحايا القديمةِ من الآلهة في أيامِ الحضاراتِ البدائيةِ من أجْلِ خَلَاصِ البشريةِ[١].

ويقولُ في مكانٍ آخرَ موضحاً تأثُّرَ بولس بالأفكارِ والمعتَقَداتِ القديمة: من الراجحِ جداً أنَّ بولسَ تأثَّرَ بالميثرائيةِ، ويتضحُ لكلِّ مَن يقرأُ رسائلَه المتنوعةَ جنباً إلي جنبٍ مع الأناجيلِ، أن ذهنه كان مشبعاً بفكرةٍ لا تبدو قطّ بارزة قوية فيما نُسبَ لعيسى من أقوالٍ وتعاليمَ، ألَا وهي فكرةُ الشخصِ الضحيةِ الذي يقدِّمُ قرباناً لله كفارةً عن الخطيئة، فما بشر به عيسى كان ميلاداً جديداً للرُّوح الإنسانيةِ، أمَّا ما بشَّر به بولسُ فكان الديانةَ القديمةَ: ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الآلهة، كان عيسي في نظره حمل عيد الفصح، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من الدنس أو الخطيئة[٢].

وينقل د شلبي في مكانٍ آخرَ كلاماً مُهِمَّاً للغايةِ عن واحدٍ من أبرزِ عُلماءِ النصارى ومؤرِّخيهم وهو Berry حيث يقول في الفرق بين مسيحية المسيح ومسيحية بولس: ولكن شاؤول كوَّنَ المسيحيةَ على حساب عيسي، فشاؤول هو في الحقيقة مؤسسُ المسيحيةِ فأدخل بولسُ على ديانته بعضَ تعاليمِ اليهود ليجذبَ له العامةَ من اليهود، كما أدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذبَ له أتباعاً من اليونان، فبدأ يذيع أن عيسي منقذٌ ومخلصٌ وسيدٌ Lord استطاع الجنسُ البشري بواسطته أن ينالَ النجاةَ، وهذه الاصطلاحاتُ التي قال بها بولس كانت شهيرةً عند كثيرٍ من الفرق وبخاصة "الميثرائية" فانحاز الكثيرُ من أتباع هذه الفرق إلي ديانة بولس[٣].

(١) راجع: المسيحية ص ١١٤- ١١٥.
(٢) المصدر السابق ص ١١٥.
(٣) المسيحية ص ١١٥-١١٦.

ومن هنا يتضحُ أنَّ بولسَ أدخلَ أفكاراً ومعتقداتٍ قديمةً في المسيحية حتى يجذبَ إليها أتباعاً آخرين، وكانت فكرة: كون عيسى ابن الله ونزوله ليضحيَ بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر واحدةً من هذه المعتقدات القديمة التي آمنت بها بعضُ الفرق التي سبقت النصرانيةَ بمئات السنين.

يقول شارل جنيبير[(١)]: والقارئُ لرسائل بولس إلي أهل رومية يجد تعبيراً عن حالةِ بولسَ النفسيةِ قبلَ تحوُّله إلي المسيحية...إنه غيرُ قادرٍ على مقاومة الخطايا التي تبرزها الشريعةُ اليهوديةُ في كل مكان من الأرض، وفي كل جانب من جوانب الحياة، وتلك بالذات كانت في هذا الزمن الحالةَ النفسيةَ التي تدفع بأهلها إلي البحث في غير ما هوادة عن (المنقذ) عن (الوسيط الإلهي) عن (الهادي) المنزه من الخطأ إلي سبل الحق والحياة[(٢)].

وقد كانت هذه الفكرةُ بمفهومها النصرانيِّ بعيدةً كلَّ البُعدِ عن المفهومِ الذي جاءت به التوراةُ، أو بشَّرَ به المسيحُ -عليه السلام- وإنما كانت من اختراع بولس الذي تأثر بالبيئةِ التي كان يعيشُ فيها، فأخرجَ المسيحيةَ من دينٍ يحملُ لواءَ الإصلاحِ لبني إسرائيلَ إلى دينٍ يقومُ على فكرةٍ واحدةٍ تقولُ: بأنَّ المعصيةَ سببُ شقاءِ الإنسانية، ولولا المسيحُ الذي خلصها منها لبقيت في هذا الشقاءِ الأبديِّ.

(١) هو مؤلف مسيحي من أم وأب مسيحيين، ونشأ في بيئة مسيحية صميمة متعصبة، ليس فيه عرق عربي ولا يهودي، تعلم في المدارس الفرنسية حتى نال درجة الدكتوراه، وانتظم في سلك التدريس الجامعي، تخصص في تاريخ الأديان، ثم تعمق شيئاً فشيئاً في دراسة المسيحية حتى أصبحت المسيحية تخصصه الدقيق، ومن أجلها درس بعض اللغات كالعبرية واللاتينية، أخذ يرتقي في المناصب الجامعية حتى صار أستاذاً في تاريخ المسيحية في أكبر جامعات فرنسا. راجع المزيد من سيرته في مقدمة كتابه: المسيحية (نشأتها وتطورها) ترجمة الإمام الأكبر الراحل د/ عبد الحليم محمود، من منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٩٨ شارل جنيبير، ترجمة: د/ عبد الحليم محمود من منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت

المبحث الرابع
التوبة والخلاص من الذنب في النصرانية

تمهيد

إذا كان المسيحُ – حسْبَ معتقدِ النَّصارى– قد قدَّمَ نفسَه فداءً للبشـــريةِ ليُكَفرَ الخطيئةَ الأولي التي ارتكبها آدمُ –عليه السلام– فإنَّ هذا الفعلَ من المسيح قد فتحَ البابَ أمامَ الإنسانِ لتمسحَ عنه آثارُ تلك الخطيئةِ، وبالتالي فإنَّ الخطيئـــةَ التي كانت سبباً في غضبِ اللهِ علَى البشريةِ، والتي اســـتحقتْ مـــن أجْلهَـــا الحرمانَ والطردَ من رحمةِ اللهِ قد كفَّر عنها المسيحُ ورُفعَ الذنبُ عن البشريةِ نهائياً، لكنَّ المشكِلَةَ تكمُنُ في المعاصِي التي يَرتَكِبُهَا الناسُ بعدَ مسألةِ صَلْبِ المسيحِ وتقديمِ نفْسِه قُرباناً لله ـــــ حسبَ اعتقادِ النصارى– هذه المعاصِـــي والُذنوبُ يكونُ الإنسانُ مسئولاً عنها مسئوليةً تامةً ولا تُغفرُ له إلَّا بالاعترافِ أمامَ رجالِ الدِّينِ كي ينالَ الغُفرانَ عنها، ومن أجْلِ هذا فقد أقامتْ الكنيســـةُ النصرانيةُ مجموعةً من الشَّعائرِ والطقُوسِ التي تكونُ سبباً لنيـــلِ الغُفـــرانِ والتَّكفيرِ عن الذَّنبِ المُرتَكَبِ، فالاعتقادُ السَّائدُ في النَّصْرانيةِ: "أنَّ الكنيســـةَ امتدادٌ للمسيحِ، ولاستمراريةِ وجودِه معنا، مـــن خـــلالِ الرُّســـلِ وخُلَفـــائهم والأَسرار[1]، من أجلِ ذلكَ أوصَى المسيحُ بالتبشيرِ والعمادِ، وأقامَ بُطْرسَ[2]

(١) المقصود بها: أسرار الكنيسة السبعة التي يعتقد فيها النصارى، وهي: سر المعمودية أي التغطيس في الماء ودليله في إنجيل يوحنا ٣: ٥ (الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله) وسر الشكر ودليله في يوحنا ٦: ٥٣ ـــ ٥٦ (الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم، من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق، من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه) وسر الكهنوت ودليله (لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي القسوسية) وسر الميرون و دليله في أعمال الرسل ٨: ١٤ (...... لأنه لم يكن قد حل على أحد منهم غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع) وسر مسحة المرضي ودليله قول يعقوب الرسول ٥: ١٤ (أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فليصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب) وسر التوبة ودليله في يوحنا ٢٠: ٢٣ (من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت) وسر الزواج ودليله في الرسالة إلي أهل أفسوس ٥: ٣٢ (هذا السر عظيم) يراجع: أسرار الكنيسة السبعة ص ٨ ـــ ٩ حبيب جرجس، ط٤ مكتبة المحبة، القاهرة.

(٢) اسمه سمعان (شمعون باليونانية)، ولد في قرية بيت صيدا في الجليل، يحتل مكانةً بارزةً في =

رئيساً للكنيسةِ، وجعَلَهُ حارسَ الإيمانِ، وقلَّدَ الرُّسُلَ وخُلَفَاءَهُم سُلطانَ (الربط والحل) وغُفرانَ الخطايا(١).

المطلب الأول

التعميد

ومن الطقوس والشعائر المهمة – والتي كانت من مخترعاتِ بولس في النصرانية– في مسألةِ ارتكابِ الذنبِ والمعصيةِ وكيفيةِ التوبةِ والتطهُّرِ منها، وقد اعتبرتها الكنيسةُ النصرانيةُ سراً من أهمِّ أَسرارِها: سرّ المعمودية أو التعميد، ويقومُ العِمادُ عادةً على تغطيسٍ كلِّيٍّ، أو على الأقلِّ برشِّ الماءِ على الرأْسِ، وحسْبَ بولس: يمثل التغطيسُ: موتَ المسيحِ ودفْنَهُ، ويرمُزُ الخروجُ من الماءِ إلَى القيامةِ بالاتحادِ معَه....فالمتعَمَّدُ يموتُ من حيثُ الخطيئةُ، ويحيا من أجْلِ اللهِ في المسيحِ، وهو يحيا بحياةِ المسيح(٢)، ويعتقدُ (شارل جنيبير) أن التعميدَ وطقوسَ الاغتسال فيه " إنما كانت من قبيل عائلة الطقوسِ الوثنيةِ، ولم تكن نابعةً من روح الدين اليهودي، ذلك أنَّ بولسَ يقولُ في الرسالةِ إلي أهْلِ غلاطيَّةَ: " لأنّض كلَّكُم الذين اعتمدتم بالمسيحِ قد لبستم المسيحَ"(٣)، وهذا يعني: أنَّ المسيحيَّ يتَّحِدُ بالمسيحِ بواسِطةِ التَّعميدِ......فبالتعميد (يرتدِي المسيحيُّ المسيحَ) كما يرتدي اللباسَ المقدسَ المنجي، وهو ينزلُ رمزياً إلي عالم الأمواتِ بغطُوسِه في النَّهرِ أو إناءِ

=

أناجيل العهد الجديد، وسفر أعمال الرسل عند النصارى، يعتبر أول باباوات الكنيسة الكاثوليكية، وهو الذي أسس كنيسة أنطاكيا (سوريا) وأسس كنيسة روما، قبل أن يقتل خلال اضطهاد المسيحيين الذي تم أيام الامبراطور نيرون عام ٦٧م وفق عقائد الكنيسة الكاثوليكية. الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

(١) الديانة المسيحية ص ١١١ نهي نجار.

(٢) الميزان في مقارنة الأديان ص ١١١–١١٢.

(٣) ٣ (٢٧)

التَّعميدِ، فإذا ما خرجَ بعدَ غطْسَاتٍ ثلاثٍ تماماً كما خرجَ المسيحُ من القبر(١) بعد أيامٍ ثلاثٍ، أيقنَ بأنه سوف يُمجَّدُ يوماً إذا أرادَ الله كما مجد المسيح(٢).

يقولُ د أحمد شلبي: ولابدَّ أنْ يقومَ بهذه العمليةِ كاهنٌ يُعَمِّدُ الإنسانَ باسمِ الأبِ والابنِ والرُّوحِ القُدُسِ، ولا يقومُ بالتعميدِ غيرُ الكهنةِ إلَّا للضَّرورةِ، وحينئذٍ يُسَمَّى التعميدُ " تعميدَ الضَّرورة" ولا تجيزُ الكَنيسةُ القبطيةُ التعميدَ بالرشِّ إلَّا للضَّرورةِ كذلكَ، وتلزمُ أن يكونَ بالتَّغطيس، وأن يكونَ ثلاثَ مراتٍ، الأُولي باسمِ الأب، والثانيةُ باسمِ الابنِ، والثالثةُ باسمِ روحِ القُدس(٣).

ولا يَعني هنا كيفية التعميدِ أو الطريقة التي يتمُّ بها بقدر ما يهمنا بيان أنه سرٌّ من الأسرارِ التي احتفظت الكنيسةُ النصرانيةُ بتفسيرها، وأنه يعدُّ جزءاً من الطَّريقةِ التي تتمُّ بها التوبةُ من الخطيئةِ والتطهرُ من المعصيةِ والذنبِ، يقولُ القسُّ بوطر(٤): إنَّ التعميدَ فريضةٌ مقدسةٌ يشارُ فيها بالغُسلِ بالماءِ باسمِ الأبِ والابنِ والرُّوحِ القُدسِ إلي تطهيرِ النفسِ من أدرانِ الخطيئةِ بدمِ يسوعَ المسيحِ..... ولا يجوزُ أن يُعمَّدوا إلَّا إذا اعترفوا بإيمانهم جهاراً أمامَ الكنيسةِ(٥) ويَذكرُ الأبُ بولس إلياس أنَّ المعموديةَ تمحو الخطيئةَ الأصليةَ في النفسِ وتلدُها ثانيةً(٦).

وهكذا كانَ التعميدُ -ولا يزالُ عندَ النصارى- فهو علامةٌ على دخولِ النصرانيةِ، كما يُعتبرُ كذلكَ علامةَ التَّطهُّرِ من أدرانِ المعصيةِ بما يُصاحِبُهُ من طقوسٍ معتقَدٍ فيها عند النصارى كرشِّ الماءِ الذي يكررُ ثلاثاً، واللمسِ باليدِ الذي يُصاحِبهُ المسحُ بالزيتِ المقدس.

(١) هذه عقيدة النصارى في موت المسيح عليه السلام وقيامته.
(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ١١٠.
(٣) المسيحية ص ١٧٢ وراجع: تاريخ الأقباط ص ٨ ل زكي شنودة.
(٤) هو أحد شراح العقيدة النصرانية وصاحب رسالة: الأصول والفروع في شرح العقيدة النصرانية.
(٥) المسيحية ص ١٧٢-١٧٣.
(٦) السابق ص ١٧٣.

المطلب الثاني

العشاء الرباني

ويعدُّ كذلكَ من الشَّعائرِ البولسيةِ التي اخترعَها بولسُ وأدخلَها في ديانةِ المسيحِ -عليه السلام- وأقامَ لها الطقوسَ، وأعطاها معانٍ لا تحتملُهــا، ويســمي: "بالمناولةِ أو العشاءِ الرباني الأخيرِ، والذي يرمز - كما يزعُمُ النصــارى- إلى عشاءِ عيسى الأخيرِ مع تلاميذِه، إذ اقتسمَ معهم الخبزَ والنبيذَ، فــالخبز: يرمز إلي جسدِ المسيحِ الذي كُسِرَ لنجاةِ البشريةِ، أمَّا الخمرُ: فيرمُزُ إلي دمِه الذي سُفكَ لهذا الغرضِ...... فمنْ أَكَلَ هذا الخبزَ وشربَ هذه الخمرَ استحالَ الخبزُ إلي لحمِ المسيحِ، والخمرُ إلي دمِهِ، فيحصُلُ امتزاجٌ بين الآكِلِ وبــينَ المسيحِ وتعاليمِه[١].

يقول شارل جنيبير: لقد استطاعَ بولسُ أن يجدَ لهذا العشــاءِ تفســيراً رُبطَ برباطٍ لا ينفصِمُ إلى عذابِ عيسى الذي تحمَّلَــه لتخلــيصِ البشــريةِ، وغمره غمراً بذلكَ المفهومِ الخصْبِ للتضحيةِ من أجْلِ التَّكفيرِ.... فجعلَ منه غايةً لسرٍّ رفيعٍ، وتذكرةً ورمزاً حياً - أرادَهُما عيسى نفسُه - فيما زعــمَ بولسُ لما لقيهُ من عذابِ الصليبِ[٢].

جاء في رسالةِ بولسَ الأولي إلي أهل كورينثيا: " في الليلة التي ســلم فيها (إلي الرومان) أخذ السيدُ عيسى خبزاً، وبعد أن شكر اللهَ كسرَ هذا الخبزَ وقال: "هذا جسدي، وهو لكم، فلتفعلوا ذلك دائماً تذكرةً لي"[٣] وهكذا أيضــاً تناولَ الكأسَ بعدَ العشاءِ وقالَ: "هذه الكأسُ هي العهدُ الجديــدُ فــي دمــي، فلتفعلوا ذلك كلما شربتم تذكرة لي، ذلك أنكم كلما أكلتم مــن هــذا الخبــز وشربتم من الكأس، كأنما تعلنون موتَ السيدِ حتى يأتيَ إليكم"[٤].

---

(١) المسيحية ص ١٧٣ د/ شلبي.
(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ١٠٩.
(٣)١١/٣٣.
(٤) المصدر السابق.

ولعل القارئَ يدركُ السرَّ وراءَ اعتقادِ النصارى في هذِه الشعيرةِ – شعيرة العشاء الرباني –: حيثُ إنَّ أكْلَ الخبزِ وتناولَ النبيذِ (الخمر) يُعدُّ من قِبَلِ الكنيسةِ (قرباناً مقدَّساً) وهو أحدُ الأسرارِ السبعةِ عندَها، وبناءً على ذلكَ يؤمنُ النَّصارى أنه عندما يشتركونَ في هذا العشاءِ يكون المسيحُ معهم وجوداً جسدياً! فبالمناولةِ (أي مناولة الخبز والنبيذ) يتمُّ اتحادُ النصرانيِّ اتحاداً كيانياً عميقاً بشخصِ السيدِ المسيحِ، ومن أجلِ ذلكَ يُسمِّي النصارى هذه الشعيرةَ أيضاً: بالاستحالةِ، وذلكَ لاعتقادِهم: أنَّ مَنْ أَكَلَ الخبزَ وشربَ الخمرَ، استحَالَ الخبزُ إلى لحمِ المسيحِ والخمرُ إلى دَمِهِ، فيحصلُ امتزاجٌ بينَ الآكِلِ وبينَ المسيحِ وتعاليمِه، وهكذا أصبحت هذه الطقوسُ القربانَ الذي يقدِّمُهُ النصرانيُّ المذنبُ عن خطاياهُ تكفيراً لها.

فقد جاءَ في إنجيلِ يوحنا قولُ عيسى: " والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم، ومن يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية يثبت فيَّ وأنا فيه، فمن يأكلني فهو يحيا بي"[١].

(١) راجع: ٦/٥١– ٥٨.

المطلب الثالث

الاعتراف وصك الغفران

أما الشعارُ الثالثُ الذي رفعتْهُ الكنيسةُ النصرانيةُ وعدَّتْهُ أَحَدَ أركــانِ الديانةِ، وسراً من أسرارها فهو: الاعترافُ والإقرارُ بجميعِ الــذُّنوبِ أمــامَ القساوسةِ، لأنَّ الخطيئةَ التي كانتْ سبباً في غضَبِ اللهِ على البشريةِ قد كفَّرَ عنها المسيحُ – في زعْمِهِم– ورُفعتْ عنها نهائياً، ولكنَّ الخطيئةَ التي يرتَكِبُها الإنسَانُ بعدَ ذلكَ، فهو مسئولٌ عنها، فعليه أن يعترفَ بها أمامَ الكنيسةِ، ويلي هذا الاعترافَ بالطَّبْعِ ما يُعطَي للمُقِرِّ بذنبِهِ وخطَايَاهُ، وهو ما يُسمَّى (بصكِّ الغُفرانِ) دليلاً على غفرانِ ذنوبهِ التي ارتكَبَهَا طوالَ الفترةِ السابقةِ لاعترافهِ، إذ يعتقدُ النصارى أنَّهُ لا يمكنُ دخولُ الجنةِ، إلَّا بعدَ الإقرارِ للقسيسِ بجميــعِ الذُّنوبِ والخطايا:" فقد جعلَ اللهُ في أيدِي المطارنةِ والقسيسينَ مالمْ يجعلْهُ في يدِ أحدٍ، وذلكَ أنَّ كلَّ ما يفعلُونَهُ في الأرضِ يفعلُهُ اللهُ في السَّماءِ، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلونَ التَّوْبَاتِ، ويعفونَ عن السيئاتِ، بأيديهم صــلاحُ الأحيــاءِ والأموات(١).

إذن: فالمصالحةُ التي تمتْ بين اللهِ وبينَ البشرِ –عن طريقِ المسيحِ– "لا تَعني أنه لا تثريبَ على البشر في الخطــأ والعصــيانِ، بــل إنَّ تلــكَ المصَالحةَ تمتْ لحسابِ الكنيسةِ، فجسدُ المسيحِ ودَمُهُ اللــذانِ يُكَفِّــرانِ عــن الذُّنوبِ والخطايا في نظرِ الكنيسة محفوظانِ لــديها، وهــي وحــدها التــي توزعهما على من تعطيه من الناجين، أما من تُجَرِّمُهُ الكنيسةُ فلا تُعطيه جسدَ المسيحِ ولا دَمَه فيصبحَ من الهالكين في الدنيا، يحرقُ بالنار عندما تُصــدِرُ عليه الكنيسةُ عقوبةَ الحرمان، فضلاً عن حرقه في نار الآخرة بعد ذلك(٢).

---

(١) بين الإسلام والمسيحية ص ٩١.

(٢) الميزان في مقارنة الأديان ص ١٥٩ محمد عزت الطهطاوي.

يقولُ د شلبي: وأما غفرانُ الذنوبِ فقد أصبحَ بدعةً عجيبةً، فـإذا أرادَ البابا أن يبنيَ كنيسةً، أو يجمعَ مالاً لشيءٍ ما طبعَ صكوكَ الغفران ووزَّعها على مندوبيهِ في التسويقِ لهذِه الصُّكوكِ ليبيعوها للناس، كالذين يبيعونَ أسهُمَ الشركاتِ أو أوراقَ اليانصيب، وبالصكِّ فراغٌ تُرِكَ ليُكتبَ بـه اسـم الـذي سيغفرُ ذنبُه، والعجبُ أنَّ هذا الصكَّ يغفر لمشتريه ما تقدَّمَ من ذنبـه ومـا تأخَّر، فهو بعبارةٍ أُخري: إذنٌ بارتكابِ كلِّ الجرائمِ بعدَ أنْ ضُمِنت الجنةُ لهذا المحظوظِ(١).

فقد أعطت الكنيسةُ النصرانيةُ لنفسها الحقَّ في أن تعفوَ عن الخطايـا، وتحطَ الذنوبَ عن المذنبين، وقد اشتهر صكُّ الغفرانِ في أوروبا(٢)، وكـان يُعطَى لمن أراد في مقابل مبلغٍ من المالِ، ولعلَّ نصَّ الصـكِّ يُغنـي عـن التعليق عليه: " ربنا يسوع المسيح يرحمك يا..........(يكتب اسم المعترف) ويحلك باستحقاق آلامه الكليةِ القدسيةِ، وأنا بالسلطان الرسولي المعطَى لـي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنيسيةِ التي اسـتوجبتَها، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتَها مهما كانت عظيمةً وفظيعةً !!! ومن كل علةٍ وإن كانت محفوظةً لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأمحو جميعَ أقذار الذنوب، وكلَّ علاماتِ الملامـة التـي ربمـا جلبتَها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصاتِ التي نلتزمُ بمكابدتها في المطهر، وأردك حديثاً إلي الشركة في أسرار الكنيسةِ، وأقرنك في شركة القديسين، أردك ثانيةً إلي الطهارة والبر الذين كانا عند معموديتك، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخُطاةُ إلي محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلي فردوس الروح، وإن لم تمت سـنين

---

(١) المسيحية ص: ٢٥٥.

(٢) ويبدو أن هذا الأمر كان قبل قيام حركات الإصلاح الديني في النصرانية والتي كان أحد أهم أسباب قيامها الرئيسة هو رفض الثائرين لصكوك الغفران، ومسألة وساطة رجال الدين في تكفير الخطايا للمذنبين، وسطوة رجال الدين وتفردهم بهذا الأمر، راجع نهاية هذا المبحث.

مستطيلة، فهذه النعمة تبقي غير متغيرة !!! حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس "(١).

** كيفية الاعتراف: يعتقد النصارى – كما مرَّ– أنه لا يُمكِنُ دخولُ الجنة إلَّا بعد الإقرار بالذنوبِ أمامَ القس، وأن كل من يخفي منهم ذنباً فلا ينفعه إقرارُه، " فهم في كل سنة عند صيامهم يمشون إلي الكنائس، ويقرون بجميع ذنوبهم للقسيس الذي يقوم بكل كنيسة، وفي سائر أوقاتهم، ولكن لا يقر أحد بذنب إلَّا إذا مرض وخافَ الموتَ، فإنه يبعث إلي القسيس فيصل إليه، ويقر له بجميع ذنوبه فيغفرها له، ويكون الإقرار مصحوباً بالتأسُّفِ والندامةِ والعزمِ الثابتِ على ترك الخطيئة وعدمِ الرجوع إليها، وهم يعتقدون أنَّ كلَّ ذنبٍ غفرَه القسيسُ مغفورٌ عند الله تعالى(٢).

لكن إذا كانت الحالُ كذلك فمن أين أخذت الكنيسةُ النصرانيةُ هذه الشعيرةَ التي يعتقدُ فيها النصارى؟ وللجواب على هذا السؤال يمكنُ القول: بأن الكنيسةَ أخذتها من قراراتِ المجامعِ الدينيةِ عندَهم "إذ منحت هذه المجامع البابا سلطاتٍ دينيةً ترفعه إلي مرتبة غفران الذنوب، فقد قررَ مجمعُ روما المنعقدُ سنة ١٢١٥م أنَّ الكنيسةَ البابويةَ تملِكُ حقَّ الغفرانِ وتمنحُه لمن تشاء، ومَنْ يَملِكُ حقَّ الغُفرانِ يملكُ –بالتالي– حقَّ الحرمان، وقد باشرَ رجالُ الدّينِ في الكنيسةِ هذه السُّلطةَ وتوسَّعوا فيها، فأخذوا يبيعونَ صكوكَ الغفرانِ، ويُصدِرونَ قراراتِ الحِرْمانِ حتى لو تعلقت بالملوكِ والعظماء، وشاعَ بينَ المسيحيينَ أنَّ اللهَ يغفرُ لمن يرضَى عنه آباءُ الكنيسة، فانتشرتْ صكوكُ الغُفرانِ وذاعت، ومارستها كلُّ الكنائس.... فكانَ المذنبُ يَدفعُ قدراً من المالِ في مقابلِ الحصولِ على صكِّ الغفران(٣).

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٥٨، ط دار الفكر العربي، القاهرة، والمسيحية ص ٢٥٥.

(٢) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ص ٩١ عبد الله الترجمان الأندلسي نقلا عن: الخلاص من الخطيئة ص ٤٥.

(٣) التوبة في اليهودية والمسيحية ص ٢٧٢.

ذلكَ هو الوضعُ التي آلت إليه حينذاكَ مسألةُ غفـرانِ الـذُّنوبِ فـي النصرانية، فقد كانَ جمعُ المالِ من هُنا وهناكَ على أيدي القساوسةِ وسـيلةً لغُفرانِ ما مضى وما هو آتٍ من الذنوبِ والآثامِ دونَ حاجةٍ إلى توبةٍ أو ردِّ مظلمةٍ، ولم يقفْ التسابُقُ على جمعِ المالِ بينَ رجالِ الدِّينِ النصرانيِّ إلـى هذا الحدِّ، بل إنه وصلَ إلى أبعدَ من ذلك، فقد كانَ الاعتـرافُ مـن أجـلِ غُفرانِ الذّنوبِ وسيلةً لقضاءِ الشهوةِ عندَ رجالِ الدِّين يقول د أحمد شـلبي: "وفي خلواتِ الاعترافِ حدثت أشياءٌ يقشعرُّ لها الوجدانُ.....أشـير إليهـا إشارةً سريعةً لعلَّ قراراً حاسماً يصدرُ بإيقافِ هذا الزيغ الذي يُرتَكبُ باسـمِ الدين، وقد نشرت المجلةُ المسيحيةُ (رسالة الحياة) صوراً من ذلكَ ينديَ لها الجبينُ، وذكرت أحداثاً محددةً اعتدي فيها رجالُ الدين، أو حاولوا العـدوانَ على المعترفات[1].

وبعدُ: فإنَّ التخلُّصَ من الخطيئةِ في النصرانيةِ مرَّ بمراحلَ ثلاث:

الأولي: الخلاص العام بالفداء حيث قدم المسيحُ نفسَه على الصليب – حسب زعمهم– لتكفير خطيئةِ البشرية.

الثانية: الخلاص بمغفرة الكنيسة لمن يشاء علـى أيِّ وجـهٍ ترضـاهُ الكنيسةُ ويُعدُّ صكُّ الغفرانِ نموذجاً لذلك.

الثالثة: الخلاص بالاعترافِ تفصيلياً أمامَ القسيس[2].

والخلاصةُ في هذا الشأن: أنَّ النصرانيةَ جعلت من الكنيسةِ الواسـطةَ بين الله وبين الناس، فهي التي تحملُ أسرارَ التوبةِ، وتحملُ مفاتيحَ الغفران.

وأقامت من أجل ذلكَ شبكةً معقَّدةً من الطقوسِ والشَّعائرِ حتى يبقـي النصرانيُّ تحتَ سيطرتِها ووطأتِها ونفوذِها، فلا يقوَى على التمرُّدِ والعصيانِ عليها، فهي التي تتحكَّمُ في الغفرانِ والحِرمانِ، وهذا هو السببُ الذي قامـتْ

(١) المسيحية ص ٢٥٦.

(٢) الخلاص من الخطيئة ص ٤٥– ٤٦.

من أجلِه حركاتُ الإصلاحِ الدينيِّ ضدَّ الكنيسةِ ورجالِهــا بقيــادةِ زعمــاءِ الإصلاحِ الدينيِّ[1]، فقد قامت هذه الحركاتُ بالثورة على تلكَ الصــلاحياتِ الواسعةِ لرجالِ الدينِ، وكانَ من أهمِّ انتقاداتِها للكنيسَــةِ موضــوع العشــاء الرباني، والغفران إذ اعتبرت الأولَ أسطورةً وليس حقيقةً، ولا يمكن للعقل البشري أن يقبلها، أما الغفرانُ فهو حق من حقوق الله، وليسَ لرجالِ الكنيسةِ أيّ حقٍّ في هذا المضمار، فلا يغفر الذنوبَ إلا اللهُ.

(١) الإصلاح الديني: حركة دينية ظهرت في أوروبا في القرن السادس عشر تدعو إلي إصلاح الكنيسة وتخليصها من الشوائب والممارسات الخاطئة لرجال الدين، وتمخضت عن ظهور ما يعرف بالكنائس الإنجيلية، وقد أصر زعماء الإصلاح الديني آنذاك (مارتن لوثر، وزونجلي، وكلفن) على الانشقاق عن الكنيسة، وعلى أن يكون الإنجيل وحده -لا البابا ولا التقليد المسيحي المتوارث- هو المرجع الأعلى في الشئون الدينية، وقد أدي اختلافُ زعماءِ الإصلاحِ في الرأي -إضافة إلي الفروق الجغرافية والسياسية والاجتماعية والثقافية - إلي ظهور أكثر من حركة إصلاح. انظر: http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=1222 الموسوعة العربية / مجلد ٢ / العلوم الإنسانية / الفلسفة وعلم الاجتماع والعقائد / الإصلاح الديني بتصرف.

المبحث الخامس

حقيقية التكفير عن الذنب في النصرانية

من خلال أقوال المسيح الحقة

بعدَ أنْ عُرِضَ في المباحثِ السَّابقةِ معتقدُ النصارى في الخطيئةِ وكيفية التوبةِ والتخلُّصِ من الذنب –حسب اعتقادهم– يمكنُ القولُ: بأنَّ الأناجيلَ التي يؤمنُ بها النصارى ليس فيها دليلٌ صريحٌ يوضحُ أنَّ هناكَ خطيئة عامة لا يكفرها إلا الدَّمُ، وكلَّ ما وردَ في هذا شأنٌ لا يُقطعُ فيه برأي، وإنما هو مثارٌ للتأويل، وربما يكونُ حَمْلُهُ على غير ما أرادوا أولى من حملِه على ما حملوه(١)، والذي يستعرضُ عباراتِ الأناجيل يستطيع أن يجدَ الطريقَ الصحيحَ إلي التوبةِ الحقيقيةِ، والتكفيرَ الأمثلَ للذنب والمعصية، بعيداً عن الخرافاتِ التي يؤمنُ بها النصارى كالتجسد والصلب، إذ لا داعي للقول بهما، فقد ضمن الإنجيلُ – الذي يؤمنون به أيضاً– الخلاصَ بطريق معتدلٍ يتفقُ مع كافة الشرائعِ السماويةِ، ومع المنطق الذي جرت به الرسالاتُ، ويتفق كذلك مع العقل البشري، بعيداً عن الطلاسم والألغاز، ولا يطلب من الإنسان ألا يري ولا يسمع ولا يتكلم، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في إنجيل متي: بينما كان المسيح يسير خارجاً " وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: "أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟"١٧فَقَالَ لَهُ: "لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا".١٨قَالَ لَهُ: "أَيَّةَ الْوَصَايَا؟" فَقَالَ يَسُوعُ: "لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَزْنِ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ.١٩أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ".٢٠قَالَ لَهُ الشَّابُّ: "هذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَمَاذَا يُعْوِزُنِي

---

(١) للتفصيل انظر: المسيح في عقائد المصادر المسيحية ص ٢٧٦ وما بعدها لواء مهندس أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة ١٩٩٥م.

بَعْدُ؟"[٢١]قَالَ لَهُ يَسُوعُ: "إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ وَبعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْـطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي"(١).

والملاحَظُ من خلال هذا النصِّ أنَّ المسيحَ -عليه السلام- لم يطلب من سائله إلا أنْ يؤمنَ بالله الواحدِ الأحدِ، كما طلبَ منه -أيضاً- أن يحفـظَ الشـريعةَ والوصايا، ويتخلصَ من الشهوات، والتعلق بها، وأن يكونَ تابعـاً للرسـالةِ والرسولِ.

وفي يومِ القيامةِ يكونُ الخلاصُ كذلكَ أيضاً بالعَمَلِ الصَّـالحِ، ولـيسَ بالصلب والفداء، وهذا كلامٌ تنطقُ به الأناجيلُ: " ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَـنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُـوتَ الْمُعَـدَّ لَكُـمْ مُنْـذُ تَأْسِـيسِ الْعَالَمِ.[٣٥]لأَنِّي جُعْتُ فَـأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْـتُ فَسَـقَيْتُمُونِي. كُنْـتُ غَرِيبًـا فَآوَيْتُمُونِي.[٣٦]عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضًـا فَزُرْتُمُـونِي. مَحْبُوسًـا فَـأَتَيْتُمْ إِلَيَّ.[٣٧]فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطْشَانًا فَسَقَيْنَاكَ؟[٣٨]وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَآوَيْنَاكَ، أَوْ عُرْيَانًا فَكَسَوْنَاكَ؟[٣٩]وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟[٤٠]فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ.[٤١]"ثُمَّ يَقُـولُ أَيْضًا لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّـارِ الأَبَدِيَّـةِ الْمُعَـدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ،[٤٢]لأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي.[٤٣]كُنْـتُ غَرِيبًا فَلَـمْ تَـأْوُونِي. عُرْيَانًـا فَلَـمْ تَكْسُـونِي. مَرِيضًـا وَمَحْبُوسًـا فَلَـمْ تَزُورُونِي.[٤٤]حِينَئِذٍ يُجِيبُونَهُ هُمْ أَيْضًا قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًـا أَوْ عَطْشَانًا أَوْ غَرِيبًا أَوْ عُرْيَانًا أَوْ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا وَلَمْ نَخْدِمْكَ؟[٤٥]فَيُجِيـبُهُمْ قِائِلاً: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدِ هؤُلاَءِ الأَصَـاغِرِ، فَبِـي لَـمْ تَفْعَلُوا.[٤٦]فَيَمْضِي هؤُلاَءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَالأَبْرَارُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ".(٢).

(١) ١٦/١٩- ٢١.
(٢) متي: ٢٥/ ٣٤ – ٤٦.

وليتأملَ القارئُ حديثَ الأناجيل عن الخطايا التي تغفر والخطيئة التي لن تغفر، فقد جاء في إنجيل متي: " لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ.٣٢وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي.٣٣اِجْعَلُوا الشَّجَرَةَ جَيِّدَةً وَثَمَرَهَا جَيِّدًا، أَوِ اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ رَدِيَّةً وَثَمَرَهَا رَدِيًّا، لأَنْ مِنَ الثَّمَرِ تُعْرَفُ الشَّجَرَةُ.٣٤يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي! كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِالصَّالِحَاتِ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ الْفَمُ.٣٥اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَنْزِ الصَّالِحِ فِي الْقَلْبِ يُخْرِجُ الصَّالِحَاتِ، وَالإِنْسَانُ الشِّرِّيرُ مِنَ الْكَنْزِ الشِّرِّيرِ يُخْرِجُ الشُّرُورَ.٣٦وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ بَطَّالَةٍ يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يُعْطُونَ عَنْهَا حِسَابًا يَوْمَ الدِّينِ.٣٧لأَنَّكَ بِكَلاَمِكَ تَتَبَرَّرُ وَبِكَلاَمِكَ تُدَانُ"(١).

وهذا كلامٌ واضحُ الدّلالةِ على نوعيةِ الخطايا التي يغفرُها الله -ﷻ- للمذنبين، والتي لا يغفرها، فالمسيحُ -عليه السلام- حيثُ إنَّ الكلامَ على لسانه- يحذرهم من ارتكاب المعصية في حق الروح القدس لأنَّ المعصيةَ في حقه لن تغفر أبداً، وهذا يتفق مع قول الله ﷻ: "إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً"(٢).

وفي إنجيل مرقص توجد هذه المسألة أكثر وضوحاً من متى حيث يقول: " ٢٨اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ جَمِيعَ الْخَطَايَا تُغْفَرُ لِبَنِي الْبَشَرِ، وَالتَّجَادِيفَ الَّتِي يُجَدِّفُونَهَا.٢٩وَلكِنْ مَنْ جَدَّفَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَيْسَ لَهُ مَغْفِرَةٌ إِلَى الأَبَدِ، بَلْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ دَيْنُونَةً أَبَدِيَّةً".٣٠لأَنَّهُمْ قَالُوا: "إِنَّ مَعَهُ رُوحًا نَجِسًا".(٣).

ويخبر لوقا في إنجيله بكلام السيد المسيح عليه السلام عن المعصية والتحذير منها، ووجوب العفو عن الأخوة وقبول توبة التائب مهما بلغت

(١) ١٢/ ٣١ – ٣٧
(٢) سورة النساء الآية: ٤٨.
(٣) ٣/ ٢٨ – ٣١.

فيقول: " وَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: "لاَ يُمْكِنُ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ، وَلكِنْ وَيْلٌ لِلَّذِي تَأْتِي بِوَاسِطَتِهِ! ٢خَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحىً وَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ، مِنْ أَنْ يُعْثِرَ أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ. ٣اِحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ. وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ، وَإِنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ. ٤وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَرَجَعَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ قَائِلاً: أَنَا تَائِبٌ، فَاغْفِرْ لَهُ"(١).

وهذا دليلٌ واضحٌ على أنَّ المعصيةَ أمرٌ واقعٌ، وهي فطرةٌ ركبت في طبيعة البشر، والمسيح – عليه السَّلامُ – يحذرهم من أن يكونوا سبباً في نشر الرذيلة وإغواءِ البشر، ثم يطلب من كل واحد منهم أن يحترسَ لنفسه، فالإنسانُ مسؤولٌ عما اقترفت يداه من آثام، وما ارتكب من ذنوب، وأن أحداً لن يتحملَ أخطاءَ الآخرين، فكلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة، وهذا ما تَعنيه كلماتُ السيدِ المسيحِ عليه السلام، ولعلَّ النصَّ السَّابقَ يوضحُ بعضَ الجوانب ويجليها.

فالكُلُّ محاسبٌ على ما اقترفت يدَاهُ، ولن يتحملَ أحدٌ وزرَ أخيه، وأنَّ هناكَ المعصية الكبرى التي لن تغتفر وهي (الشرك بالله) وأما غيرها مهما كان كثيراً ففضلُ اللهِ فيه واسعٌ، وأنَّ كلَّ إنسانٍ بكلامه يتبرأ، أو يُدان.

(١) ١٧/ ١ – ٤.

المبحث السادس

التوبة بين اليهودية والنصرانية

وفي هذا المبحثِ تُعرضُ مقارنةٌ سريعةٌ بين التوبـةِ فـي اليهوديـةِ والتوبةِ في النصرانية، فعلى الرغم من أنَّ الديانتينِ السماويتينِ المحرفتينِ قد أخذتا قصةَ خطيئةِ آدم – عليه السلام – من مصدرٍ واحدٍ وهو العهدُ القديم – وكلتاهُما تؤمنُ به – إلا أنَّ الهوةَ بينَ المعتقدين واسعةٌ، والفجوةَ شاسعةٌ في كثيرٍ مـن الأفكار والنتائجِ التي توصَّلَ إليها كلٌّ من اليهود والنصارى في هذه القضية، فهم وإنْ اتفقوا على أنَّ آدمَ – عليه السلام – قد نُهي عن الأكل من الشـجرة، إلا أنَّ اليهوديةَ لا تقول: إنَّ الخطيئةَ التي وقعَ فيها آدمُ جعلته واقعاً تحتَ المـوتِ الأبديِّ، بينما النصرانيةُ تقول: إنَّ حكمَ الموتِ لم يقـعْ علـى آدمَ إلا بعـدَ سقوطِه في عثرة العصيان، وبناءً على ذلك يُمكنُ إيرادُ أهمِّ الاختلافاتِ بينَ الدّيانتين على النحو التالي:

النصرانيةُ تعتقدُ أنَّ الموتَ الجسديَّ الواقعَ على الإنسان، كانَ عقاباً له من الله بسببِ عصيانِ أبيه آدم، بينما اليهوديةُ لا تتحدثُ عن هذا الأمر البتةَ ولا تذكرُه.

اليهودية تعتقدُ أنَّ هناكَ عقوبات عدة حَمَلَهَا آدمُ وذريتُه، منها ما هو متعلقٌ بحواءَ من آلام الحمل والولادة، ومنها ما هو متعلقٌ بالشقاءِ والتعـب الذي سيجده الإنسانُ على الأرض بسبب تلك المعصية، بينمـا النصـرانيةُ لا تجد في مثل هذه العقوباتٍ سبباً في تكفيرِ خطيئةِ آدم، فالمُعتَقَدُ النصرانيُّ: أنَّ الخطيئةَ بقيتْ على الإنسانيةِ ولم تُغْفرْ إلا بتقديم المسـيحِ نفسَـه فـداءً للبشريةِ على الصليبِ تكفيراً عن هذه الخطيئة.

اعتقاد اليهودِ في المسيحِ المُخلِّص يختلفُ كلياً عن اعتقادِ النَّصارَى، فهم يرونَ أنه سيأتي في آخرِ الزَّمَان، ليخلِّصَهم من اضطهادِ الأمم، وليعيـدَ لهم مجدَهُم، ولا علاقةَ له بخطيئةِ آدمَ كما يتصورها النصارى مـن فـداءٍ وصلبٍ ونحوهما.

اليهوديةُ: ترى أنَّ الإنسانَ محاطٌ بالشهواتِ والمعاصي، لهذا كثرت التشريعاتُ اليهوديةُ من الحديثِ عن المكفراتِ للذنوبِ والخطايا، ومن أجلِ ذلكَ أقرت القرابينَ والأضحياتِ والنذورَ والهباتِ والصيامَ وغيرَ ذلكَ مقابل أن يتخلصَ اليهوديُّ من ذنوبه وآثامه.

أما النصرانيةُ فترى: أنه رغمَ تكفيرِ المسيحِ للخطيئةَ الأولي، إلا أنَّ الإنسانَ قد يقعُ في الخطأ مراتٍ ومرات، ومن أجلِ ذلكَ ابتكرتْ النصرانيةُ مجموعةً من الطقوسِ والشعائرِ التي يَعتقدُ النَّصارَى أنها تكفرُ المعاصي وتفتحُ للإنسَانِ المُذنبِ طريقَ التوبةِ من جديد ومنها (التعميد، والعشاء الرباني، والاعتراف المؤدي إلي نيل صك الغفران) [1].

تتفق كلتا الديانتين على ضرورة وجود الكاهن، أو رجل الدين عند تقديم أو مزاولة شعائر وطقوس التكفير عن الخطيئة، إلا أنَّ النصرانيةَ تعتقد أن الكنيسةَ عندما تغفرُ الخطيئةُ فهي تجسد المسيحَ الذي أعطاها هذه الصلاحيةَ.

" تعتقدُ النصرانيةُ أن للبابا ومن يقوم مقامه من رجال الدين حق غفران الذنوب عن طريق الاعتراف، وهذا ما لا يوجد عند اليهود ولا يعترفون به، رغم أنهم يفرضون وجودَ الكاهن من نسل هارون عند تقديم الكفارة[2].

لهذا يمكنُ القولُ: إنَّ الهوةَ واسعةُ بين معتقداتِ اليهودِ ومعتقداتِ النصارى فيما يتعلقُ بنتائجِ خطيئةِ آدمَ – عليه السَّلامُ – أو فيما يتعلق بالخطيئةِ التي يرتكبها الإنسانُ في حياته، والسبب في ذلك: أنَّ النصرانيةَ جعلت محورَ فكرها وعقيدتها مسألةَ صلبِ المسيحِ تكفيراً عن خطيئةِ آدمَ، وهذا جعلَهَا تبتعدُ كثيراً عن اليهودِ وعقيدَتهم في هذا الشأن.

---

(١) راجع: المبحث الرابع بمطالبه الثلاثة.

(٢) راجع: التوبة في اليهودية والمسيحية ص ٢٧٣– ٢٧٥ بتصرف شديد

ورغم الهوَّة الواسعةِ بينَ الطرَفينِ إلَّا أنَّه يوجَدُ بعضُ أوجــهِ الشــبهِ لأفكار وعقائدِ الديانتينِ في قصةِ الخطيئةِ، فمن أوجه الشبه بينهمــا أنهمــا يعتمدانِ مصدراً واحداً وردتْ فيه هذِه القصةُ وهو التوراة، ولهذا فهما يتفقان أن الشجرةَ التي نهي آدمُ –ـ عليه السلام –ـ عن الأكل منها كانت شجرةَ المعرفة، ولولا نزولُه من الجنة لأكل من شجرة الخلد، هذا بالإضافة إلي اتفاقهما في أنَّ سببَ عصيانِ آدمَ هو غوايةُ الحيةِ وحواءَ معاً، وكأنَّ أصابعَ الاتهامِ تتجهُ نحوَ حواءَ لأنها أغرتْ آدمَ بالمعصيةِ مما أدَّى إلي الوقوعِ فــي الخطيئــةِ، ويُلاحَظُ كذلكَ أنهما لا يُذكُرانِ إبليسَ ودورَه في هذِه المعصيةِ.

المبحث السابع

التوبـــــــة في الإسلام

بعدَ أن تبينَ موقفُ اليهوديةِ والنصرانيةِ من مسألةِ المعاصي والذنوبِ والخطايا وطريقةِ التكفيرِ عنها والخلاصِ منها (التوبة) يأتي بعد ذلك الحديثُ عن موقفِ الإسلامِ من هذِه القضيةِ الهامةِ التي تتوقفُ عليها نجاةُ الإنسانِ في الدُّنيا والآخِرة، خاصَّةً وأنَّ أصْلَ هذِه الأديانِ الثلاثةِ واحــدٌ وهــو وحــيُ السَّماءِ، وذلكَ قبلَ تحريفِ اليهوديةِ والنصرانيةِ.

فقد عُرِفت التوبةُ في الإسلامِ بهذا الاسمِ، ولم تُعرفْ باسمٍ آخرَ كمَا هو الشَّأنُ في الدِّيانتينِ السَّابقتينِ، والتوبةُ بابٌ عظيمٌ في الإسلامِ، إذ يفتحُ بـــابَ الأملِ أمامَ كلِّ مسلمٍ للرجوعِ إلى الخيرِ، والعودةِ إلى الحقِّ، واستئنافِ رحلةِ العملِ الصَّالحِ، ويستطيعُ المسلمُ أن يقومَ وَحْدَهُ بكلِّ شيئٍ بلا واسطةٍ أو تدخُّلٍ من أحدٍ، والإسلامُ يتركُ المساحةَ بين المسلمِ وربِّه جلَّ وعلا، فقــد أخــذتْ النصوصُ بيدِه ودلَّتْه على المسارِ الصَّحيحِ الذي ينبغي أن يسيرَ فيهِ للحصُولِ على التوبةِ ونيلِ الغُفرانِ من الله تعالى، فما هــو رأيُ الإســلامِ فــي هــذا الموضوعِ العقائديِّ الهامِّ ؟ هذا ما سيتضحُ إنْ شاءَ اللهُ في المطالبِ التاليةِ:

المطلب الأول

معصيةُ آدمَ عليه السلام وموقفُ الإسلامِ منها

يتحدثُ القرءان الكريمُ عن قِصَّةِ الصِّــراعِ بــينَ آدمَ -عليه السلام- بــينَ الشيطانِ، حيثُ استطاعَ الشيطانُ أن يُخرجَ أدمَ وحواءَ من الجنـــةِ، وذلـــكَ بتزيينِ الأكْلِ منَ الشَّجَرَةِ التي نُهي عن الأكلِ منها حيثُ يقولُ سبحانه وتعالى: "وَقُلْنَا يَــا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَــا هَــذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ"(١).

(١) الآية: ٣٥ من سورة البقرة.

في المقابلِ لم يتركْ الشيطانُ آدمَ وزوجتَه يهنآن بحياتهما، بل تمكَّنَ من إغوائِهما: " فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى"(١).

حينئذٍ كانَ لابدَّ أن يهبطَ آدمُ وزوجُه من الجنةِ فجاءَ الأمرُ الإلهيُّ: " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ "(٢).

وهكذا نزلَ آدمُ وحواءُ من الجنةِ بعدَ أنْ تمتْ – بنجاحٍ – تجربةُ ارتكابِ المعصيةِ خطأً وبيان كيفية التخلص منها بالتوبة والاستغفار، وقد بين الله تعالى أن عصيانَ آدمَ لم يكن عن عمدٍ وسبقِ إصرارٍ، وإنما عن وسوسةٍ أدت إلي النسيانِ قال تعالى:" وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً"(٣) وهنا يحسمُ القرءان الكريمُ القضيةَ: قضية الخطيئة، في صراحة وبساطة، وفي أسلوبٍ قاطعٍ لا يدعُ مجالاً للاجتهاداتِ الشخصيةِ، أو التخميناتِ العشوائيةِ، بل وضعَهَا في إطارِها الطبيعيِّ المتَّفِقِ مع قوانينِ العقلِ، وضروراتِ الحياةِ الأرضيةِ التي نزلَ إليها آدمُ وزوجَتُه.

وكانَ أول شيئٍ من مقتضياتِ ارتكابِ الذنبِ ومحاولةِ التكفيرِ عنه والتوبةِ منه هو: أن يعلنَ آدمُ وزوجتُه الندمَ ويعترفَا بالخطأ: " قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ "(٤)، وفي موطن آخر: " فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عليه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"(٥).

(١) الآيتان ١٢٠- ١٢١ من سورة طه، وراجع: الآية ٣٦ من سورة البقرة، والآيات: ٢٠- ٢٣ من سورة الأعراف.

(٢) ١٢٣ سورة طه.

(٣) الآية ١١٥ من سورة طه.

(٤) الآية: ٢٣ من سورة الأعراف.

(٥) الآية ٣٧ من سورة البقرة.

وهذه الكلماتُ التي تلقَّاهَا آدمُ كانتْ دُعاءً يدعو به اللهَ سُبحانه وتعالى ليتوبَ عليه، وعن مجاهدٍ أنه كان يقولُ في قوله تعالى:" فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عليه": الكلمات: اللهم لا إله إلا أنتَ سُبحانكَ وبحمدِك، ربِّ إني ظلمتُ نفسِي فاغفرْ لي إنكَ خيرُ الغافرينَ، اللَّهمَّ لا إله إلَّا أنتَ سُبحانكَ وبحمدِكَ، ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنكَ خيرُ الرَّاحمينَ، اللهمَّ لا إله إلا أنتَ سُبحانكَ وبحمدِكَ، ربِّ إني ظلمتُ نفسي فَتُبْ على إنكَ أنتَ التوابُ الرحيم(١).

وبعد الإقرارِ بالذنبِ، والندمِ عليه وإعلانِ التوبةِ منه، قَضَي الله بأمره في خطيئةِ آدمَ ورفعَ مكانَهُ إلي عليينَ:" ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عليه وَهَدَى" (٢) اصطفاه واختصَّهُ بالمكانةِ السَّاميةِ عندَهُ، وبدأَ آدمُ -عليه السلام- وزوجُه رحلةَ الحياةِ الأرضيةِ – دونما خطيئةٍ– ولا يؤرِّقُهُما ذنبٌ، لأنَّ اللهَ قَبِلَ منهما الندمَ ومنَّ عليهما بالتوبةِ، ثم بدأت بعد ذلك معركةٌ طويلةٌ.. بين الإنسانِ والشَّيطانِ على الأرضِ، اختبار مستمر يتعرضُ له أبناءُ آدم، فمن نجحَ عادَ إلى الجنةِ، ومَنْ ضَعُفَ أمامَ الشيطانِ وغوايتهِ هوَى معه إلى الجحيم.

والذي يمعنُ النظرَ في القصةِ القرءانيةِ عن آدمَ – عليه السَّلامُ – وأكلِهِ من الشجرةِ يرى أنها تناقضُ تماماً ما ذكرته التوراةُ عن أن سببَ نهي الله تعالى آدم وزوجته الأكل من الشجرة، هو ألا يصبحَ الإنسانُ عالماً وعارفاً مثل الله عز وجل!! لأنَّ الشجرةَ كانت شجرة المعرفة (٣).

---

(١) تفسير القرءان العظيم لابن كثير ٢٣٩/١، ط ٢ دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة تحقيق: سامي محمد سلامة، وراجع عدداً من التفاسير منها: جامع البيان في تأويل آي القرءان ٥٤٥/١ محمد بن جرير الطبري ط ١ مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م تحقيق: أحمد محمد شاكر، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٧٠/١، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ وغيرها.

(٢) الآية: ١٢٢ من سورة طه.

(٣) وهذا مخالفٌ لعقيدتنا الإسلامية في هذا الشأن، حيث إن الله تعالى قد أخبرنا في آيات سورة البقرة بأنه زود آدم عليه السلام عقب خلقه مباشرة بمعرفة أسماء كافة المخلوقات (وعلم آدم الأسماء كلها) وكان ترتيب هذا التزود سابقاً من حيث الزمان على النهي عن الأكل من الشجرة =

كما أنَّ الإسلامَ تجاهَ هذِهِ القضيةِ "يتسم بنظرته الواقعيةِ للإنسان، فهو ليس مَلَكَاً ولا شيطاناً، بل كائنٌ رفيعٌ كريمٌ، فيه أشواقُ الروحِ وتطلعاتُهـا، وفيه من رغباتِ الجسمِ وأهواءِ النفس.. فمن طبيعتِهِ التسامِي والارتقاءُ، ومن طبيعتِهِ السقوطُ والالتواءُ، فما دامتْ الطبيعةُ البشريةُ قابلةً للوقوعِ في الذنبِ، فإنَّ البابَ لا يُوصَدُ أمامَها، وإنَّ الرحمةَ ألَّا يُطردَ عنها، لئلَّا يظلَّ في شقاءٍ دائمٍ وخطيئاتٍ يتبعُ بعضُها بعضاً"(١).

وما دامَ الأمرُ كذلكَ، وما دامتْ طبيعةُ الإنسَانِ هكذَا، فقد أمدَّ اللهُ بني آدمَ بوسائلَ عديدةٍ لمواجهةِ الشَّيطانِ والانتصارِ والتغلُّبِ عليه، وفتحَ لهم باباً واسعاً لكي يتوبوا من ذنوبِهم ويتخلَّصوا من خطايَاهُم، حتى إذا ما قَبِلَ اللهُ توبتَهم وغفرَ لهم ذُنوبَهم لقوا اللهَ عزَّ وجلَّ بدونِ ذنبٍ أو خطيئةٍ.

وهذا ما فعلَهُ آدمُ وحواءُ حيثُ قالا كما ذكرَ القرءان الكريمُ: " رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ"(٢).

وهذه الآيةُ القرءانيةُ الكريمةُ تبرز لنا قاعدةً إسلاميةً ثابتةً قوامها: العفو والمغفرة من أيِّ ذنبٍ يرتكبهُ المسلمُ شريطةَ أن يقترنَ بتوبةٍ نصوحٍ، تتضحُ بالمطلَقِ في القرءانِ الكريمِ والمسمَّي: بسورةِ التوبةِ، هذا فضلاً عن تَردادِ هذِه اللفظةِ وما يُرادِفُهَا من مستلزماتها أمثال: غفر(٣) وعفا(٤) ورحم(٥)

=

بأربع آيات بينات (من الآية ٣٠: ٣٤ من سورة البقرة) الأمر الذي يجعل الزعمَ بأن الشجرة التي نهي الله آدمَ وزوجته عن الأكل منها أنها شجرة المعرفة زعماً باطلاً.

(١) الخطيئة والتوبة بين اليهودية والمسيحية ص ٢٧٧، د/ محمد أحمد الخطيب.

(٢) من الآية: ٢٣ من سورة الأعراف.

(٣) وردت هذه الكلمة ومشتقاتها في القرءان الكريم أكثر من: ٢٣٦ مرة.

(٤) وردت هذه الكلمة ومشتقاتها أكثر من ٣٥ مرة.

(٥) وردت هذه الكلمة أكثر من ٣٠٠ مرة، راجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرءان الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي.

ومشتقاتها، مصداقاً لوصفِه سبحانه وتعالى نفسه بأنــه: الغفــور الــرحيم، الرحمن الرحيم، التواب الرحيم، الرؤوف الرحيم، الودود الرحيم[١].

وأستنتجُ من هذِه الصفاتِ ومشتقاتها: أن وجودَهـا وورودَهـا فـي القرءان الكريمِ فيه دلالةٌ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ بعبادِهِ، ومن ثمَّ شرعَ اللهُ التوبةَ رحمةً بهم، وذلك لأنَّ تشريعَ التوبةِ ليس رحمةً بالعَاصِي وحْدَهُ، ولكنه رحمةٌ بالمجتمع كُلِّه، فالعاصي إذا عرفَ أنَّه لا توبةَ له، وأنه محكومٌ عليه بالخلُودِ في الجحيمِ، فإنه يتمادى في إجرامه.

لذلك فإنَّ علماءَ المسلمينَ لا يُسَمُّونَ هذه التجربةَ التي أصْلتْ نارُهـا آدمَ وحواءَ " خطيئةً " كما تُسميها التوراةُ والإنجيلُ، بل يسمونها معصـيةً، وإن تَبِعَهَا هُدىً، كما جاءَ في القرءان الكريمِ، وإن هذه التجربةَ وما أثارتـه من معصية، يعتبرها الإسلامُ نعمةً بدلَ أن تكونَ نقمةً، لأنها تمثلُ التجربـةَ الأولى للإنسانِ في بدايةِ سيرتِهِ على الأرضِ من خـلالِ ممارسـتهِ أعبـاءَ الخلافةِ، كما أنها تُمثِّلُ الفترةَ الضروريةَ للإنسانِ في تربيةِ إحساسهِ الخلقيِّ، وزرعِ الشعورِ بالمسئوليةِ، وذلكَ عن طريقِ امتحانِهِ بما يُعهَـدُ إليـه مـن تكاليفَ وأوامرَ مفروضة.

إنَّ هذه التجربةَ الآدميةَ هي مدعاةٌ إذن لذريةِ آدمَ من بعدِهِ كي يفكِّروا دائماً فيما خصَّهُم اللهُ ﷻ من تكليفٍ ومسؤولية.... كي يتعلمَ الإنســانُ منـذُ البدءِ أنَّ الحياةَ الدُّنيا ليست نعيماً دائماً، وليست شقاءً دائمـاً، وأنَّ الإنســانَ يسعَدُ فيها ويَشْقَى، إذ يتعرَّضُ لتجاربَ كثيرةٍ قد يُصيبُ فيهـا مـرةً، وقـد يُخطِئُ مراتٍ، فإنْ أصابَ فخيراً يفعلُ، وإنْ أخطأَ فإنهُ واجدٌ دائماً ربَّاً غفوراً رحيماً إنْ تابَ توبةً صادقةً خالصةً، لذلكَ كانتْ المعصيةُ الأُولى في نظـرِ الفلاسفةِ المسلمينَ " أولَ فعلٍ للإنسانِ تتمثلُ فيه تجربـةُ حريـةِ الاختيـارِ،

---

(١) راجع مثلاً: الآية ٥٤ من سورة الأنعام، والآية ١٥٣ من سورة الأعراف، والآية ٨٢ من سورة طه، والآية ٥٣ من سورة الزمر، والآية ٢٥ من سورة الشوري وغيرها.

وحريةُ الاختيارِ تتضمَّنُ: حريةَ عملِ الخيرِ الذي خلَقَهُ اللهُ وأحبَّهُ وارتضَاهُ لعبادِهِ، كما تتضمَّنُ: حريةَ عملِ الشرِّ الذِي خلَقَهُ اللهُ كذلكَ، ولكنْ لم يرْضَهُ اللهُ لهم(١) وذلكَ مصداقاً لقولِه ﷻ: "إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم...."(٢).

وقد اعتمدَ الفلاسفةُ في ذلك على مدلولِ بعض دسائس أهلِ الكتابِ والمنافقين الواردةِ في بعض آيات القرءان الكريم، وفحواها: أنَّ السعدَ واليُمْنَ من عند الله، وأنَّ الشؤمَ من عندِ رسولِ الله –ﷺ– وقد أبطلَ اللهُ دسَّهُم وزَعْمَهُم في هاتين الآيتين: "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً، مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عليهمْ حَفِيظاً"(٣).

وهذا يعني: أن ما يصيبُ الإنسانَ المكلفَ من حسنةٍ فبفضلٍ من الله ﷻ، وبتيسيرٍ منه لأسبابها، كي يأْتِيَها بملءِ إرادتِهِ، وفي المقابل: فما اقترفَ هذا الإنسانُ من سوءٍ، فبما اكتسبت يداهُ أيضاً بملءِ إرادتِه، وعليه: فإنَّ اللهَ ﷻ، وهو الوهَّابُ لكثيرٍ من الأشياءِ النافعةِ للمرءِ، هو الذي أمرَهُ أن يوجِّهَهَا في الخيرِ، فما أصابه من خيرٍ فمن اللهِ وبفضلهِ " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا"(٤)، وأما إذا ما انحرفَ بها إلي طريقِ الشرِّ، صحَّ أن يُقَالَ: إنَّ هذا الشرَّ هو من عندِ ذاتِ المرءِ ونفسِهِ، أوجَدَهُ اللهُ تعالى ابتلاءً للعبادِ لكي يحملَ كلٌّ طائرَهُ في عُنُقِهِ، ويكونَ على نفسِهِ شهيداً.

" لذلك شكلت المعصيةُ الأولي– في نظر المسلمين– امتحاناً معيناً بكلِّ معنى الكلمة، وقد ابتُلِيَ به الإنسانُ، لا لتودِي بهِ إلى التهْلُكَةِ، ولكنْ لكي

---

(١) تاريخ الفكر الديني في الإسلام: ص ٩٩ بتصرف، محمد إقبال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١ م.

(٢) من الآية: ٧ من سورة الزمر.

(٣) الآيتان: ٧٨ – ٧٩ من سورة النساء.

(٤) من الآية: ٥٨ من سورة يونس.

تُنَمِّيَ مداركَهُ العقليةَ، وتحثُّهُ إلى أنْ يرتفعَ إلي أعلى عليينَ، بدل أنْ يرتدَّ إلى أسفلِ سافلين(١)، تصديقاً لقولهِ تعالى: " وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ "(٢).

إذن فاللهُ سُبحانهُ وتعالى قد خلقَنَا مختارينَ، إذْ جعلَ لنا طاقةً تستطيعُ أن تَعصيَ أو تُطيعَ، "وما دامَ هنالكَ اختيارٌ"، فالإنسانُ يختارُ هذِه أو تلكَ، مع العلمِ بأنَّ العبدَ ليسَ مخلوقاً لكي يختارَ خيراً مطلقاً، أو يختارَ شراً مطلقاً، ولذلك فأحياناً ننسى أو نسهوَ، أو نعصيَ، وبالتالي فما دامَ العبدُ معرضاً للخطيئةِ، فإنَّ اللهَ تعالى شرعَ التوبةَ حتى لا ييأسَ العبدُ من رحمةِ الله، فيتوبَ إلى الله توبةً نصوحاً ويرجعَ إلى الله تعالى، من أجلِ ذلكَ كانتْ الحكمةُ المقدورةُ من الله تعالى: في أن ينسَى آدمُ وأنْ يخطئَ، وأنْ يُعلِّمَهُ اللهُ ﷻ كلماتِ التوبةِ حتى يتوبَ، وهكَذَا تابَ آدمُ وتابتْ حواءُ، وقد تقبَّلَ اللهُ توبتَهُمَا (٣).

(١) تاريخ الفكر الديني في الإسلام ص ٩٩.

(٢) من الآية: ٣٥ من سورة الأنبياء وراجع: حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرءان الكريم ص ١٠٣.

(٣) المرجع السابق: نفس الموضع.

المطلب الثاني

المعصية وفطرة الإنسان

لم يخلق اللهُ ﷻ الناسَ معصومينَ من الخطأ، بعيدينَ عن الزَّلَلِ، بل جعلَهُمُ اللهُ قادرينَ على فعلِ الخيرِ والشرِّ، قال تعالى: " أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"[١]، والنجدانِ: الطَّريقانِ الواضِحَانِ، طريقُ الخيرِ وطريقُ الشرِّ..وهذا بعضُ معاني الكلمة[٢]، وقال ﷻ: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"[٣]، والمتأملُ في هذِهِ الآياتِ الكريماتِ يستطيعُ أن يلحظَ ما يأتي:

أولاً: قوله ﷻ: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا" إشارة إلى أنَّ هذهِ النفسَ الإنسانيةَ، وبالصورةِ التي هي عليها – في أتمِّ خَلْقِها– كما قال ﷻ: "وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ"[٤]، فلا نقصَ في الصورةِ الإنسانيةِ ولا تشويهَ.

ثانياً: قوله ﷻ:" فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " جعلَ اللهُ الأمرَيْنِ فطرةً في النفس.. وفي طبيعةِ الخلْقِ والتكوينِ.. وقدَّمتْ الآيةُ الفجورَ علَى التقوى إظهاراً لإمكانِ غلَبَةِ الغرائزِ والشَّهَوَاتِ، وإمكانِ تسخيرِها للشيطان.. وفي التقديم تنبيهٌ على خُطُورَةِ الفُجُورِ على حياةِ الإنسانِ إذا تغلَّبَ.

ثالثاً: قولُه تعالى:" قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" كررت الآياتُ لفظَ: "قد" للتوكيدِ على كِلَا الأمرَيْنِ، للإشعارِ بأنَّ لكلِّ أمرٍ منهما مجالُهُ، ولا ينبغي أن يختلطَ أحدُهما بالآخر، فيظنُّ في أسباب التزكية أنها ليست أهلاً لذلك.. وكذلك في أسباب التدسية[٥].

---

(١) الآيات: ٨– ١٠ من سورة البلد.

(٢) انظر: لسان العرب: مادة: نجد.

(٣) الآيات: ٦ – ١٠ من سورة الشمس.

(٤) من الآية: ٣ من سورة التغابن، ومن الآية ٦٤ من سورة غافر.

(٥) التدسية ضد التزكية: وهي تدنيس النفس بارتكاب الخطأ والذنوب، انظر: الخلاص من الخطيئة في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٧٨ – ٧٩.

ومن الملاحَظِ كذلكَ: أن الآيةَ هنا قدَّمت التزكيةَ للاهتمامِ والتنبيهِ على ضرورةِ السَّعْي إليها.. فينبغي أن تكونَ مُقدَّمةً في كلِّ أعمالِ الإنسانِ، ويوضحُ النبيُّ - ﷺ- أنَّ الذَّنبَ مُركَّبٌ في فطرةِ الإنسانِ فعن أنسٍ -رضي الله عنه-أنَّ النبيَّ -ﷺ- قال:" كل ابن آدم خطاء وخيرُ الخطائين التوابون"(١)، وهكذا يوضِّحُ الرسولُ -ﷺ- أنَّ الخطأَ في حدِّ ذاتِهِ مِنْ طَبيعةِ الإنسانِ، وذلكَ حتَّى لا يخجلَ الإنسانُ من نفسِهِ، وحتى يستطيعَ أن يواجهَ خطأَهُ مواجهةً طبيعيةً بلا حساسيةٍ أو عجزٍ، أو غيرِ ذلكَ مما يضاعفُ مخاطرَ الذنبِ على النفسِ والمجتمعِ على حدٍّ سواء، ويبلُغُ حرصُ الإسلامِ مَدَاهُ على أن يقفَ الإنسانُ في مواجهةٍ صريحةٍ معَ ذاتِهِ، حتى يتقبلَ وجودَه كما هو، فلا هو بالشيطانِ الرجيمِ، ولا هو بالمَلَكِ المسَخَّرِ، وإنما هو إنسانٌ فيهِ الخيرُ وفيهِ الشرُّ، وهو مُطَالَبٌ بتنميةِ الخيرِ والحدِّ من الشرِّ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –- رضيَ اللهُ عنهما – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-:"كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ"(٢).

وعن أبي هُريرةَ(٣)-رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله -ﷺ-: وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ »(٤) وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضيَ اللهُ عنهما- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة، وقال الألباني: حسن، انظر: الجامع الصحيح: سنن الترمذي ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وأخرين، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٧٩/٤ حديث رقم: ٢٦٢٣ نشر مؤسسة الرسالة، ط ٢ تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين.

٣- عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة اختلف في اسمه واسم أبيه قبل وبعد الإسلام اختلافاً كثيراً: صحابي، كان أكثرَ الصحابة حفظاً للحديث وروايةً له، نشأ يتيماً ضعيفاً في الجاهلية، وقدم المدينةَ ورسول الله- ﷺ- بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً، نقلها عن أبي هريرة أكثر من ٨٠٠ رجل بين صحابي وتابعي، وولي إمرة المدينة مدة، و لما صارت الخلافة إلى عمر استعمله على البحرين، ثم رآه لينَ العريكة مشغولاً بالعبادة، فعزله. وأراده بعد زمن على العمل فأبى، وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين هجرية. الأعلام ٣٠٨/٣، أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ وخادمه دراسة حديثة تاريخية هادفة ٦/١ د/ حارث سليمان الضاري تقديم أ.د. عمر سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، ب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ٩٤/٨ نشر دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت.

اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَوْ قَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمْ اللَّهَ عز وجل لَغَفَرَ لَكُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ أَوْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللَّهُ -ﷻ- بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"(١).

وهذا غيضٌ من فيضٍ أظهرَ لنا كيفَ يفتحُ الإسلامُ بابَ الأملِ والإقبالِ على الحياةِ أمامَ أتباعه، إنَّ الخطيئةَ إذنْ هي سببُ نزولِ آدمَ وزوجِه إلى الأرضِ، وقد استمرَّ أبناءُ آدمَ وسيستمرون - إلى ما شاءَ اللهُ - في مواجهةِ الشيطانِ وأعوانِهِ، لا بخطيئةِ آدم - كما تزعُمُ اليهوديةُ والنصرانيةُ - ولكن بطبيعتهم وفطرتهم، وما يعتريها من تغييراتٍ وأطماعٍ وشَهَواتٍ.

وما مرَّ منْ أدلةٍ نبويةٍ يُبينُ أنَّ اللهَ -تعالى- بالناسِ رؤوفٌ رحيمٌ، لا يحجبُ عنهم رحمتَهُ، ولا يَقِفُ لهم يترصَّدُ خطاياهُم ليذلهم بها، وإذا كانَ البعضُ من البشرِ يتحيَّنُ الفُرَصَ للإيقاعِ بغيرِه، واستخدامِ هفواته للنَّيْلِ منهُ وإيذائه، فإنَّ اللهَ -تعالى- لطيفٌ بعبادِه ينتظرُ عودتَهُم إليه، ويفتحُ لهم جميعَ الأبوابِ إذا أرادوا الرجوعَ في أيِّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ.

فعن أبي موسَى الأشعريِّ -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ اللهِ -ﷺ-: " إِنَّ اللَّهَ تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مسيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مسيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »(٢) وهكذا يجدُ التائبُ المقبلُ على ربه أنَّ جميعَ أوقاتِ اليومِ في الليلِ أو النهارِ محلٌّ للتوبةِ والاستغفارِ، وهذا حديثٌ يسوقُ لنا جانباً من فضلِ الله تعالى على عباده، ويبينُ لنا سَعَةَ رحمَتِهِ سبحانه، فعن أبي ذرٍّ الغفاريِّ -رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ-ﷺ- قال: " يَقُولُ اللَّهُ ﷻ"مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٦٤/٢١ ح رقم ١٣٤٩٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم: ك التوبة، ب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، ح رقم ٧١٦٥ ج ٨ ص٩٩.

تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً "(١).

وهذه الأدلةُ النبويةُ تبينُ وتوضحُ أن البابَ مفتوحٌ على مصراعيه أمام المؤمنين، يبسطُ اللهُ إليهم يدَهُ ويمنحُهُم الأملَ.

ويزدادُ التفاؤلُ والرغبةُ في التوبةِ عندما نقرأُ التصورَ النبويَّ للفرحةِ الإلهيةِ بتوبةِ العبدِ المؤمنِ، فعن أبي هريرةَ -ﷺ- قال: قال رسول الله -ﷺ-:" قَالَ اللَّهُ تعالى " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِى أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ ».(٢).

وعن ابنِ مسعودٍ-ﷺ- قال: قال رسولُ اللهِ -ﷺ-:" لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ رَجُلٍ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عليها زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ فَأَضَلَّهَا فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِى أَضْلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتُ فِيهِ فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ عليها طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ»(٣).

انظر: كيف يفتحُ الإسلامُ البابَ على مصراعيه للتائبينَ الراجعينَ إلي الله تعالى؟ واقرأ هذه الآياتِ المباركاتِ لتري كيف تلمسُ قلبَ المؤمنِ بحنانٍ، وتتجهُ إلي روحهِ في إشفاقٍ وحبٍّ، يقول ﷻ مخاطباً نبيَّه

---

(١) مسلم: ك الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، ب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلي الله تعالى، ح رقم ٤٨٥٢ ج ١٣ ص ١٩٢.

(٢) مسلم وغيره: ك التوبة، ب في الحض على التوبة والفرح بها، ح رقم ٧١٢٨، ج ٨ ص ٩١.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي: ك صفة القيامة والتوبة والورع، ب خير الخطائين التوابون، ح رقم ٢٤٩٨، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وفيه عن أبي هريرة و النعمان بن بشير و أنس بن مالك عن النبي ﷺ، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين.

محمداً -ﷺ -: "نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَـذَابُ الأَلِيمُ"(١).

وهذا السياقُ سياقُ البُشرى من الله تعالى لعبادِه إذا اقتربوا إليه: "وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عليكم كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢) إنه أسلوبٌ في منتهى التودُّدِ والتلطُّفِ: سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمةَ، ولن يخلفَ اللهُ وعدَه.

(١) الآيتان: ٤٩- ٥٠ من سورة الحجر.

(٢) الآية: ٥٤ من سورة الأنعام.

المطلب الثالث

المستحقون للتوبة والمحرومون منها

من الأمور البدهيةِ المُسلَّمِ بها في الإسلام: أنَّ حقائقَ الإسلامِ تعتمدُ على أساسيّ: العملِ الصَّالحِ، والإخلاصِ للهِ وحْدَهُ لا شريكَ له مصداقاً لقولِهِ ﷻ في كثيرٍ من الآياتِ:" إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...." [1] وقولِه ﷻ: "إلاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"[2]وقوله ﷻ: "إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً"[3]، والإسلامُ يخلي بين الفردِ وربِّه، لأنَّ اللهَ هو المطَّلِعُ على خفايا القلوبِ وأسرارِ النُّفوسِ، فهو وحده الذي يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصُّدورُ، ولذلكَ فلا وساطَةَ بين العبدِ وربِّهِ، ولا سُلطانَ لأحدٍ على أحدٍ، إلَّا من بابِ التوجيهِ والنُّصحِ والتَّذكيرِ، فيوجِّهُ العالمُ الجاهلَ، ويأْخُذُ البصيرُ بيدِ إخوانِهِ ليدلَّهم على الطريقِ المستقيمِ، أما قبولُ الأعمالِ وغفرانُ الذنوبِ، فالفصلُ فيها للهِ وحده وليسَ لأحدٍ غيرِه.

ولقد ورد أمرُ التوبة – في الإسلام– متفقاً مع مبدأ المسئوليةِ الفرديةِ التي أقرَّها القرءان الكريمُ والسنةُ النبويةُ المطهرةُ، وهي وضْعُ كلِّ امرئٍ أمامَ مسئولياتِهِ فأعطاهُ حقَّ الاختيارِ ليُثابَ أو يُعاقَبَ عليها، قال ﷻ:" وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر"[4].

وأمامَ هذا الحقِّ أُقِرَّتْ المسئوليةُ الفرديةُ: " مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عليها وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً [5]، وأعطى الله للبشر حريةَ التصرف: "اعْمَلُوا مَا

---

(١) من الآية: ١٠٨ من سورة الكهف، والآية ٩ من سورة يونس، والآية ٢٥ من سورة الانشقاق.

(٢) من الآية: ٢٥ من سورة الانشقاق، ومن الآية: ٦ من سورة التين.

(٣) من الآية: ٧٠ من سورة الفرقان.

(٤) من الآية: ٢٩ من سورة الكهف.

(٥) الآية: ١٥ من سورة الإسراء.

شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"(١)، " قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ"(٢)، ومع هذا الحق يقع مبدأ المسئولية على العمل وتحمل نتيجة الاختيار وتبعاته: "إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا "(٣)، " مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعليها وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤).

هذه الآياتُ وغيرُها توضِّحُ للناس أنه: لا عُذرَ لمعتذرٍ – يومَ القيامةِ– بعدما وضحت الأمورُ، وعمَّت الرِّسالةُ الأرجاءَ، ولن يقبل عُذْرُ التبعيةِ لأحدٍ، فلا بُدَّ أن يتحمَّلَ كلُ فردٍ مسئوليَّتَهُ، ومن عطَّلَ عقْلَه وجعلَهُ تابعاً لعقلِ غيرِهِ فليتحمَّلْ مسئوليةَ ذلك: " وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ علينَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ"(٥)، ليس هذا فحسب، بل إنَّ الشيطانَ يُحمِّلُ كلَّ فردٍ مسئوليتَهُ، ويتنصل من كل تبعةٍ أو مسئوليةٍ فيقول: "وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عليكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦).

هكذا بوضوحٍ وصراحةٍ يقفُ كلُّ إنسانٍ، بل كلُّ كائنٍ أمامَ مسئوليتِهِ الفرديةِ، ويُعتَبَرُ فتحُ بابِ التوبةِ أمامَ التائبين امتداداً لهذا المبدأ، إذْ أرادَ الإسلامُ أن يَضَعَ الفردَ أمامَ مسئوليتِهِ الكاملةِ، فوضَّحَ جملةً من الحقائق وَضَعَهَا نصْبَ عينيهِ ليهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بينةٍ ويحيى منْ حيَّ عن بينةٍ:

(١) من الآية: ٤٠ من سورة فصلت.
(٢) من الآية ٨٤ من سورة الإسراء.
(٣) من الآية: ٧ من سورة الإسراء.
(٤) الآية: ٤٦ من سورة فصلت.
(٥) الآية: ٢١ من سورة إبراهيم.
(٦) الآية: ٢٢ من سورة إبراهيم.

"**أولاً:** إنه قد يخطئُ، وهَذَا لا شيءَ فيهِ.

ثانياً: إنَّ عودَتَهُ إلى صوابِهِ تفتَحُ له بابَ حبِّ اللهِ له، قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ"[(١)].

ثالثاً: على المسلمِ أن يكونَ يَقِظاً، فلا يتركُ للشيطانِ فُرصَةً على نفسِهِ، أو باباً إلى قلْبِهِ إلَّا وبَادَرَ إلى إغْلاقِهِ.

فإذا تحققتْ في المسلمِ هذِهِ الأُمورُ الثَّلاثةُ كانَ حقاً على اللهِ أن يتوبَ عليه ويهدِيَهُ إلى سَوَاءِ السَّبيلِ، وقد قَطَعَ اللهُ العهدَ على نفْسِه أن يمُنَّ بالتوبةِ على المؤمنينَ الحريصِينَ عليها، قال تعالى:" إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عليهمْ وكَانَ اللَّهُ عليماً حَكِيماً، ولَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً"[(٢)].

وقد حددتْ هذِهِ الآياتُ شُروطَ التوبةِ المقبولَةِ، وأحوالَ التوبةِ المرفوضةِ على النَّحوِ التالي: " أولاً: الملاحَظُ أنَّ الآياتِ تَصَدَّرتْ بالتوكيدِ في الجانبِ الخاصِّ بالتوبةِ المقبولةِ إذ استخدمت "إنَّمَا" كما جعلتْ التوبةَ: عهداً (عَلَى اللَّهِ) أمَّا الجانبُ الآخرُ–جانبُ المحرومينَ– فقد جاءَ الإخبارُ عن حرْمانهِ إخباراً قاطعاً حيثُ قالَ تعالى: " ولَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ" ولم يردْ في السياقِ لفظُ: العهدِ وهو قولُه " عَلَى اللَّهِ" وهو الذي وردَ في الجانبِ الخاصِّ بالتوبةِ المقبولَةِ، وذلكَ ليوضِّحَ: أنَّ المحرومينَ ليسَ لهم على الله عهدٌ...، وإنما العهدُ للمقبولينَ وحْدَهُم، فالتوبةُ لهم " عَلَى اللَّهِ" عهداً قطعَهُ الله تعالى على نفْسِهِ تطميناً لهم.. ولكنْ مَنْ هُم المقبولون؟ لقد حددت الآياتُ خاصِّيتَيْنِ من خواصِّ هؤلاءِ السُّعَدَاءِ هما:

---

(١) من الآية: ٢٢٢ من سورة البقرة.

(٢) الآيتان: ١٧– ١٨ من سورة النساء.

خواصُّ المستحقين للتوبة:

أولاهما: أنهم يعملون السوءَ بجهالةٍ.. والجهالةُ تحمِلُ معني: الجهل.. ولكنها تزيدُ فتصف حالةَ الاندفاع.. التي يتصفُ بها الإنسانُ العاصي لحظةَ ارتكابِهِ المعصيةَ.. حيثُ تُغريهِ الظُّروفُ، وتدفَعُهُ إلى ارتكابِ الإثمِ دونَ تدبيرٍ أو تخطيطٍ.. ويؤيدُ هذَا ما جاءَ في سياقِ الآيةِ.. حيثُ قالَ تعالى: "ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ" مما يَدُلُّ على أنهم ليسوا مُصرِّينَ على الذنبِ، ولم يُدَبِّروا له كسائرِ المُجرمينَ الذِينَ يقضونَ الليلَ ساهرينَ يُخطِّطُونَ لجرائمِهِم.

أما الثانيةُ: فهيَ إسْراعُهم إلى التوبةِ بحيثُ لا يمُرُّ وقتٌ طويلٌ إلَّا وتكونُ التوبةُ قد أخذَتْ طريقَهَا إلى قلوبِهم " مِنْ قَرِيبٍ" كما قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ" (١).

أمَّا المحرومون فهم الذِينَ يعيشونَ غارقِينَ في الشَّهَوَاتِ، وفِعْلِ السيئاتِ غافلينَ عن العاقبةِ التي تنتظِرُهُم، ولا يفيقون إلَّا على الحقيقةِ.. بعدَ فَوَاتِ الأوَانِ: إذا حضَرَهُم الموتُ... وبلغت الروحُ الحلقومَ، أو يموتون كافرين، وفي كلتَا الحالَتَيْن لا تُقبَلُ التوبةُ مطلقاً، كما صرَّحتْ بذلكَ الأحاديثُ النبويةُ الشريفةُ تأكيداً لما جاءَ في القرءان الكريمُ.

ومن هنا يتبينُ: أنَّ المؤمنَ دائماً ما يكونُ سريعَ التوبةِ والإنابةِ إلى اللهِ معترفاً بذنبِهِ، طالباً قبولَ توبتِهِ، يؤكِّدُ هذَا ما أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ [٢] في مُسندِهِ

(١) الآية: ٢٠١ من سورة الأعراف. وراجع: الخلاص من الخطيئة في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٨٤- ٨٦ بتصرف.

(٢) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل......الشيباني المروزي الأصل البغدادي المنشأ، ولد ببغداد ونشأ بها، وسمع الحديث من شيوخها، ثم رحل إلى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والجزيرة وكتب عن علماء عصره وسمع: سفيان بن عيينة، وإسماعيل بن علية، وهشيم بن بشير، وأبا سلمة الخزاعي، وآخرين يطول ذكرهم، وقد روى عنه جماعةٌ من شيوخه، وروى عنه أيضاً: ابناه صالح وعبد الله، وابن عمه حنبل بن إسحاق، ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، وأبو داود السجستاني. انظر: كتاب الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين ٢٤٣/١، ل: شرف الدين أبي الحسن على بن المفضل بن على المقدسي، تحقيق: محمد سالم بن محمد بن جمعان العبادي، نشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى بدون.

من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ أنَّهُ قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ قَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ"(١).

وهذا تحليلٌ صادقٌ لطبيعةِ المؤمنِ إزاءَ ذَنْبِهِ، وكذا طبيعةِ الفاجرِ الذي يستهينُ بذنوبِهِ، ولا يعملُ لها حِسَاباً، وقد قالَ اللهُ تعالى مبيناً يقظةَ المؤمنِ بالعودَةِ إلى الصواب إذا زلَّ:" إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ(٢)، والذي يمعنُ النظرَ في الآيتين يجد أنهما توضحان جانبين من جوانب مواجهة المعصية:

الأول: جانب المؤمنين الذين يتنبهون سريعاً " فإذا هم مبصرون " أي يقظون.

الثاني: جانب الإغواء وتزيين الشر، وهو الذي وضحته الآيةُ في قولها:" وإخوانهم يمدونهم في الغي "

ويضرب الرسولُ ﷺ المثلَ للمؤمن وسرعةِ رجوعه عن المعصية، فعن أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَمَثَلُ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي آخِيَّتِهِ يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى آخِيَّتِهِ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْهُو ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْإِيمَانِ فَأَطْعِمُوا طَعَامَكُمْ الْأَتْقِيَاءَ وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ"(٣).

وليتأملَ القارئُ قولَه ﷻ مبيناً سُرعَةَ عودةِ المؤمنِ إلي الله وتَذَكُّرِه:" وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٤)

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٥/٦ ح رقم ٣٦٢٩.
(٢) الآيتان: ٢٠١- ٢٠٢ من سورة الأعراف.
(٣) مسند الإمام أحمد ٨٦/١٨ ح رقم: ١١٥٢٦.
(٤) الآية: ١٣٥ من سورة آل عمران.

ومن هنا يتبين أن المؤمنَ سريعُ العودَةِ إلى الله تعالى، وأنه لا قنوطَ ولا يَأْسَ من رحمةِ اللهِ ومغفرتِهِ وعفْوِه، مصْدَاقاً لقولِهِ سُبحانه وتعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُور الرَّحِيْمُ"(١).

المنحُ الإلهيةُ للتوابين الأوابين: وقد كانَ من فضلِ اللهِ ﷻ على المؤمنينَ الذينَ يرجِعُونَ ويؤوبون إليه كلَّما اقترفوا ذنباً أو فعلُوا فاحشةً أنه قدَّمَ لهم مِنَحاً وعَطايا ذكَرَهَا القرءان الكريمُ وبينتْهَا وأكَّدتْها سنةُ الرسولِ الكريمِ -ﷺ- فمن ذلك:

المنحةُ الإلهيةُ: وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله: "هُوَ الَّذِي يُصلى عليكم وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٢)، والصلاةُ من الله ﷻ رحمةٌ بعبادِهِ كما جاءَ في الآيةِ الكريمةِ.

المنحةُ النبويةُ: وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله:" خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عليهمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عليم (٣)، والصلاة من الرسولِ -ﷺ- استغفارٌ وشفاعةٌ للمؤمنين.

المنحةُ الملائكيةُ: وقد ذكرَهَا الله تعالى في قولِهِ:" الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٤).

(١) الآية: ٥٣ من سورة الزمر.

(٢) الآية:٤٣ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية: ١٠٣ من سورة التوبة.

(٤) الآيات: من ٦ – ٨ من سورة غافر.

فانظر إلى آثارِ رحمةِ الله–ﷻ– بعبادِهِ المؤمنينَ، أنَّهُ سَخّرَ لهم حمَلَةَ عَرْشِهِ يستغفرونَ لهم، ويطْلُبونَ من اللهِ أن يُدْخِلَهُم الجنةَ دارَ النعيمِ هم ومَنْ صَلَحَ من آبائِهِم وأزْوَاجِهم وذُرِّياتهم، وإذا كانتْ غوايةُ الشيطانِ وعداوتُهُ للإنسانِ مستمرةً وباقيةً حتى قيامِ السَّاعةِ فإنَّ اللهَ قد أمدَّ عبادَهُ المؤمنينَ وزوَّدَهُم بأَسْلِحَةٍ للمواجَهَةِ مع الشَّيْطانِ لعلَّ من أهمِّهَا:

أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى جعلَ الحسنةَ بعشْرِ أمثالها وتزيدُ، والسيئةَ بمِثْلِهَا وتُمحَى، وهذا الحسابُ للحسناتِ يعتبرُ الحدُّ الأدنى، فهناكَ الحسنةُ بسَبْعِمَائةِ ضعف، وهناكَ الجزاءُ بلا حدودٍ كما قالَ تعال:" إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (١).

فتح لهم بابَ التوبةِ بعدَ السيئاتِ فيبدلَهَا اللهُ لهم حسناتٍ مصداقاً لقوله تعالى:"....فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً" (٢).

فتحَ اللهُ –ﷻ– بابَ الخيرِ للمؤمنينَ بلا عَنَاءٍ، فجعلَ الكلمةَ الطيبةَ صدقةً، ومنحَ المؤمنينَ الأجْرَ على النيةِ الحسنةِ، وعلَّمَهُم الاستغفارَ والتسبيحَ والتهليلَ والتحميدَ والتكبيرَ، وجعلَ أجْرَ قراءةِ القرءان عظيماً على كلِّ حرفٍ عشرَ حسناتٍ.

أعطى اللهُ تعالى لنبيِّهِ –ﷺ– الشفاعةَ العظمى يومَ القيامةِ، وجعلَهُ يشفعُ للمذْنبينَ من أُمَّتهِ فَيُجِيرَهُم اللهُ من العذابِ إكراماً لنبيهِ –ﷺ.

وإذا كان الإنسانُ في نظرِ الإسْلامِ معرَّضاً للصَّوابِ والخطأ، والإحسانِ والإساءَةِ، والعدْلِ والظُّلْمِ، فإنَّ اللهَ قد فتحَ أمامَهُ بابَ التوبةِ على مِصْرَاعَيْهِ لكي يتوبَ ويعودَ إلي الله:

(١) من الآية: ١٠ من سورة الزمر.

(٢) الآيتان: ٧٠ – ٧١ من سورة الفرقان.

شروط التوبة: "والتوبةُ في الإسلام بشروط، فإن كانت المعصيةُ بينَ العبدِ وربِّهِ فلها ثلاثةُ شروط:

الأول: أن يقلعَ عن المعصيةِ.

الثاني: أن يندمَ على فعلِهَا.

الثالث: أن يعزمَ على ألَّا يعودَ إليها أبداً.

أما إذا كانت المعصيةُ بحقِّ آدميٍّ فهناكَ شرطٌ رابعٌ، وهو: أن يبرأَ من حقِّ صاحِبِهَا، فإن كانت مالاً أو نحوَه ردَّهُ إليهِ، وإن كانَ حدَّ قذفٍ ونحوه مكَّنَهُ منه، أو طَلَبَ عفْوَهُ، وإن كانت غيبةً استحلَّهُ منها[(١)].

والشروطُ الثلاثةُ الأولى يجبُ أن تجتمعَ في الوقتِ الذي تقعُ فيهِ التوبةُ، فإنَّه في ذلكَ الوقتِ: يندمُ ويُقْلِعُ ويَعْزِمُ[(٢)].

لا وساطةَ بين التائبِ وربه: وإذا كانَ اللهُ سُبحانه وتَعَالى قد أعطى الإنسانَ المؤمنَ مِنَحَاً وعَطايا وزوَّدَهُ بأسلحةٍ لمواجهةِ كيدِ الشَّيْطانِ وغوايتِهِ، فإنَّهُ عندَمَا تتحرَّكُ فيه نوازعُ الخيرِ، ويقرُّ بالرُّجوعِ إلى ربِّهِ مُعلناً توبتَهُ وإنابتَهُ " فإنه لا يحتاجُ إلى الوُسَطاءِ بينهُ وبينَ خالقِهِ سُبحانَهُ، لأنَّ اللهَ أقربُ إليه مِنْ حبْلِ الوريدِ، وهوَ يدعوهُ وَيُناجيهِ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ دونَ أن يحتاجَ إلى وسيطٍ مما هوَ معروفٌ في العقائدِ والأديانِ الأُخرى بالكهنةِ والقُسُسِ ورجالِ الدِّين[(٣)]، وهذا يختلفُ تماماً مع ما ذهبتْ إليهِ اليهوديةُ من ضرورةِ وجودِ الكاهنِ أثناءَ تقديمِ القَرابينِ من أجلِ التَّطهرِ من الذَّنبِ، ويختلفُ كذلكَ مع ما ذهبتْ إليهِ النَّصرانيةُ فيما يُسَمَّى بنظامِ الاعترافِ أمامَ القُسُسِ الذي يعقُبُهُ صكُّ الغُفرانِ، فالله تعالى يقولُ في محْكَمِ التنزيل: " قُلْ يَا

(١) راجع: العبادة أحكام وأسرار ص ٣٦ – ٣٧ د عبد الحليم محمود – يرحمه الله – مطابع دار الشعب، القاهرة، ١٩٨١م.

(٢) كتاب التوبة ص ٩ ابن القيم. تحقيق: صابر البطاوي، ط دار الجيل، بيروت، ط الأولي: ١٩٩٢م.

(٣) التربية الروحية ص ٩٧ د أكرم ضياء العمري بتصرف يسير، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا، الرياض، ١٤٠٦هـ.

عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (١) وهذا الخطابُ موجَّهٌ لسائرِ العبادِ من المؤمنينَ والكافرينَ، المرتكبينَ لمعاصِي الكفرِ أو الكبائر، أن لا ييأسوا من رحمةِ اللهِ وعفوهِ عن المسيئينَ فبابُ التوبةِ مفتوحٌ، والربُّ غفورٌ رحيمٌ.

المطلب الرابع

فضل التوبة والاستغفار في البيان القرءاني الكريم

أفردَ علماءُ المسلمينَ على مرِّ العُصورِ كُتُباً للحديثِ عن التوبةِ والاستغفار(٢)، ومن لم يتيسَّرْ لهُ ذلكَ الإفرادُ جعلَ لها باباً من أبوابِ كُتُبِه(٣)والآنَ يستعرِضُ الباحثُ بعضاً من آياتِ القرءان الكريمِ لتتجلَّى بعضُ آثارِ ومعاني التوبة:

"ومن أول آثار التوبةِ أنها: بابٌ من أبوابِ الحبِّ للهِ -ﷻ- واقرأ قولَه ﷻ: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"(٤) ولما كانت التوبةُ من وسائلِ التطهُّرِ وباباً من أبوابِ القُربِ إلى اللهِ تعالى جاءت التوبةُ سابقةً على التطهُّرِ، أو يُمْكِنُ القولُ: بأنَّ التوبةَ طهارةُ القلوبِ، والتطهُّرَ بالماءِ طهارةُ الأبدانِ، فقدَّمَ طهارةَ القلوبِ لأنها المعتبَرةُ، فمن كان كثيرَ الرجوعِ إلى الله ﷻ فهو من التوابين، ولهذا أخبر الله تعالى أن يتوبَ على من يعملُ السوءَ بجهالةٍ ثم يطرقُ بابَ التوبةِ من قريب(٥)، ولما كانَ أمرُ التوبةِ بهذه الأهميةِ والمكانةِ والعظمةِ، وجَّهَ اللهُ أنظارَ المسلمينَ لذلكَ فقالَ تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ

(١) الآية: ٥٣ من سورة الزمر.

(٢) راجع مثلاً: التوبة لابن عساكر، كتاب التوبة لابن القيم، التوبة إلي الله د يوسف القرضاوي، التوبة وظيفة العمر د محمد بن إبراهيم الحمد، وغيرهم.

(٣) راجع مثلاً: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم.

(٤) من الآية: ٢٢٢ من سورة البقرة.

(٥) الخلاص من الخطيئة ص ٨٨.

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(١).

وتأتي التوبةُ كذلكَ بمعنى الندم: ومنها قوله – تعالى –: {فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}(٢) وقوله تعالى: "وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"(٣).

التوبة بمعنى التجاوز: ومنها قولُه ﷻ: "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ"(٤) أي تجاوز عنهم.

وقوله تعالى: "وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ"(٥).

التوبة بمعنى الرجوع عن الشيء: ومنها قوله تعالى على لسانِ موسَى –عليه السلام–: "سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ"(٦)، أي رجعتُ عن سؤالي الرؤيةَ.

هذه بعضُ آثار ومعاني التوبة كما وردت في آي الذكر الحكيم، أما إذا انتقل القارئُ إلى بعضِ الآياتِ التي تناولتْ جانبَ الاستغفارِ وجدَ الأمرَ في غاية الأهمية:

الاستغفار شريعة السابقين: تأتي دعوةُ القرءانِ الكريمِ إلى الاستغفارِ لتكونَ استمراراً لدَعَوَاتِ الرُّسُلِ السَّابقين، فهي ليستْ بِدعاً في الرسالات، وقد كانَ الاستغفارُ عند الرسل ركناً أساسياً، ولعلَّ قارئَ القرءانِ يذكُرُ ما جرَى ليوسفَ –عليه السلام– في السورةِ المسماةِ باسمه، وحينما ظهرت الحقيقةُ لإخوةِ يوسفَ وعلموا أنهم كانوا مخطئين في حقِّهِ، فإنه لم يوجِّهْ لهم لوماً بل

(١) الآية: ٨ من سورة التحريم.
(٢) من الآية: ٥٤ من سورة البقرة.
(٣) من الآية: ٣١ من سورة النور.
(٤) من الآية: ١١٧ من سورة التوبة.
(٥) من الآية: ٧٣ من سورة الأحزاب.
(٦) من الآية: ١٤٣ من سورة الاعراف.

قال لهم: "لا تَثْرِيبَ عليكم الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"(١)، ثم لما ظهر الأمرُ ليعقوبَ عليه السلامُ، وعادَ إليه بصَرُهُ، وطلبَ منه أبناؤهُ أن يستغفرَ لهم على ما بدرَ منهم تجاهَ يوسفَ وأخيهِ وتجاهَ أبيهِم نفسِه قال لهم: " سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (٢).

ولما اختصَمَ (ثمودُ) قومُ صالحٍ عليه السلام واختلفوا بادرهم بالإنكار عليهم فذكر ما حكاه القرءان الكريم: " قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "(٣).

وفي شريعة النبي -ﷺ- نجد الاستغفارَ دافعاً للعذابِ الذي يحلُّ بالقوْمِ جراءَ الذنوبِ التي ارتكبوها، يقولُ اللهُ تعالى: "وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ "(٤).

والاستغفار كذلك بابٌ من أبوابِ الدخولِ إلي رحابِ الله سبحانه وتعالى ورضوانِهِ، ذلك لأن الذنبَ والسوءَ من أسبابِ الابتعادِ عن رحمة الله تعالى، فلما جَنَى الإنسانُ على نفسه بالذنب، وأبعدَها عن خالقها وصارت مرتعاً خصباً للشياطين، امتنَّ اللهُ تعالى على عبدِه فيَسَّر له طريقَ الرجوعِ والعودَةِ إلى رحابهِ مرةً أُخرى يقولُ سبحانه وتعالى:" وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً "(٥)، وإذا كان المؤمنُ يطمعُ في عفوِ ربِّه، فليُظهرْ من نفسِهِ درجةَ الاستحقاقِ لهذه المكرُمةِ أو لهذِه المنزلةِ عند اللهِ تعالى، بأن يغفرَ للآخرين ذلاتِهم ومآخِذَهُم ومعايبَهُم، قال تعالى: "....

(١) من الآية: ٩٢ من سورة يوسف.
(٢) من الآية: ٩٦ من سورة يوسف.
(٣) الآية: ٤٦ من سورة النمل.
(٤) من الآية: ٣٣ من سورة الأنفال.
(٥) الآية: ١١٠ من سورة النساء.

وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(١)، وقال أيضاً:" وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(٢).

والاستغفارُ في النهايةِ إنما هوَ اعترافٌ بذُلِّ الذنبِ وضَعْفِ النفسِ، فهو دخولٌ إلى الله تعالى من بابِ الضَّعفِ، وهذا أوسعُ الأبوابِ للوصولِ إلى رحمةِ اللهِ ﷻ واللهُ يقولُ الحقَّ وهوَ يهدِي السبيلَ.

المطلب الخامس

التوبة والإنابة في البيان النبوي الشريف

المتأملُ للأحاديثِ النبويةِ الصَّحيحةِ يرَى أنَّ أبوابَ الأملِ أمامَ المسلم فسيحةٌ جداً، فهي على كثرتها لا تجعلُ اليأسَ يتسربُ إلى نفسِ الإنسانِ مهما بلغتْ خطاياهُ وذنُوبُهُ، لأنَّ رحمةَ اللهِ واسعةٌ تتقَاصَرُ عنها الذُّنوبُ، ولهذا ينبغي ألَّا يستعظِمَ إنسانٌ ذنبَهُ فيظنّ أنَّ رحمةَ اللهِ ومغفرتَه عاجزةٌ عن مغفرةِ أيِّ ذنبٍ إلا الشركَ، لأنَّ هذا اليأسَ يُفضي بالإنسانِ إلى الكفرِ والعياذُ باللهِ، فليتنبه كلٌّ إنسانٍ إلى هذا وليدركْهُ تمامَ الإدراكِ.

وقد أخرجَ الأئمة عن أبي موسى الأشعريِّ -رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ -ﷺ- قالَ:" «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٣). قال المازري: المرادُ بِهِ: قبولُ التوبةِ، وإنما وردَ لفظُ بسطِ اليدِ لأنَّ العربَ إذا رضيَ أحدُهُم الشيءَ بسطَ يَدَهُ لقبولِهِ وإذا كرهه قبضَهَا عنه فخوطبوا بأمرٍ حسِّيٍّ يفهمونه وهو مجاز(٤).

" وبسطُ اليدِ معناهُ: فتحُ بابِ الأملِ في التوبةِ وقبولُهَا مع سَعَةٍ وتَفَضُّلٍ، وذكر الليل والنهار لبيانِ أنه: لا وقتَ محددٌ للتوبةِ، فمنْ أخطأَ

(١) من الآية: ٢٢ من سورة النور.

(٢) من الآية: ١٤ من سورة التغابن.

(٣) سبق تخريجه في المطلب الثاني.

(٤) انظر: صحيح مسلم ٤/ ٢١١٣.

بالليلِ ثمَّ تابَ يجد بابَ التوبةِ مفتوحاً، فإذا أخَّرَ التوبةَ إلى النَّهارِ قُبلتْ منهُ، وإنْ أخَّرَها إلى أيِّ وقتٍ بشرطِ أن يكونَ قبلَ وقتِ الإلجاءِ وهوَ: ساعةُ الغرغرةِ إذا بلغتْ الرُّوحُ الحُلْقومَ ورأى أو عاينَ الملائكةَ حينئذٍ لا تُقبَلُ التوبةُ(١)، قال تعالى: " هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلائكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً"(٢).

ففي هذا الوقتِ لا تقبلُ توبةُ التائبِ، لأنَّ اللهَ أعطاهُ فُرَصاً كثيرةً فلم يستغلَّها الاستغلالَ الأمثلَ، الذي يؤدِّي بهِ إلي رضوانِ اللهِ ورحمتِهِ.

وليتأملَ القارئُ حديثاً آخرَ من بيانهِ الشريفِ -ﷺ- ليجدَ أوسعَ الأبوابِ للأملِ في رحمةِ اللهِ -ﷻ- قال رسولُ اللهِ -ﷺ-:" إنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ لباباً مَسِيرَةُ عَرْضِهِ أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ في عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا قَالَ سُفْيَانُ قِبَلَ الشَّامِ خَلَقَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مَفْتُوحًا يَعْنِى لِلتَّوْبَةِ لاَ يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ »(٣).

وقد أخرجَ ابنُ ماجه بإسنادٍ جيد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ: "لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ، لَتَابَ اللَّهُ عليكم."(٤).

---

(١) الخلاص من الخطيئة ص ٩١ بتصرف يسير.

(٢) من الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

(٣)أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من فضل الله لعباده: ٥٤٦/٥ ح رقم ٣٥٣٦ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصحح الألباني إسنادَه. والبيهقي في شعب الإيمان ٤٠٠/٥ ح رقم ٧٠٧٦، ط الأولي ١٤١٠ هـ: نشر: دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة ١٤١٩/٣ ح رقم ٤٢٤٨، وقال الهيثمي: هذا إسناد حسن، ويعقوب بن حميد مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات، وقال الألباني: حسن صحيح، طبعة: دار الفكر، بيروت تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

هذا جانبٌ من فضلِ اللهِ -ﷻ- بينه القرءان الكريمُ ووضحته سنةُ الرسول -ﷺ- وكلاهما يؤكدُ سَعَةَ رحمةِ الله ﷻ بالعبد، وأن بابَ الأملِ والتوبةِ ما زال مفتوحاً لكلِّ مخطئٍ ومذنبٍ إذا ما لامَتْهُ نفسُه على تفريطِهِ في أمرِ التوبةِ والرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى، وقد سبقَ ذكرُ جانبٍ آخرَ من البيانِ النبويِّ الشريفِ في مواضعَ متفرقةٍ من هذا البحثِ، حسْبَ ما اقتضتْهُ الحاجةُ وذكرُ الدَّليلِ، ولعلَّ اتساقَ الفكرةِ الإسلاميةِ قد ظهرَ مع العقلِ والمنطقِ، ومقتضى القدرةِ الإلهيةِ التي لا تتناقَضُ مع العقلِ، كما أنَّهَا ارتفعتْ عن العُنصُريةِ والعَصَبيَّاتِ، ولم تدخل في وهمِ الواهمين، وإنما قررتْ حقائقَ كُبرى، وفتحتْ البابَ واسعاً إلى رحمةِ اللهِ -ﷻ- بالعباد.

الخاتمـــــــةُ

وبعدَ هذا المطَافِ في الأفكارِ العقائديةِ لليهُودِ والنصارى والمســـلمين في مسألةِ التوبةِ وتكفيرِ الذُّنوبِ يمكنُ الوصُولُ إلى أبرزِ النتائجِ والتَّوصياتِ المهمةِ والتي ظهرتْ من خلالِ النصوصِ الدينيةِ عندَ أصْــحابِ الــدياناتِ الثلاثِ وبيانها كالتالي:

<u>أولا: أبرز نتائج البحث</u>:- تضمنت قصة الخطيئة - كما جاءت فـــي أسفار- اليهودِ خُرافاتٍ وأساطيرَ جَلَبَهَا اليهودُ من الأُمـــمِ والشــعوبِ التـــي عاشوا بينها فَتَرَاتٍ من الزمنِ كالأساطيرِ الفارســـيةِ والبابليـــةِ والفرعونيـــةِ والآشوريةِ وغيرِها، وهذا ما أكَّدَ عليه غيرُ واحدٍ من الباحثينَ.

يتضحُ أيضاً - من خلالِ سياقِ القصةِ التوراتيـــةِ - أنَّ آدمَ وحـــواءَ عليهمَا السلامُ قد لقيا جزَاءَ خطئهمَا بارتكابهما المعصيةَ وأكلِهِمَا من الشجرةِ المحرَّمةِ، وهذا الجزَاءُ هو الهبوطُ من الجنةِ والنزولُ إل الأرضِ[1].

أنَّ اليهوديةَ اعتمدتْ كثيراً على المكفِّراتِ الدُّنيويـــةِ للـــتخلُّصِ مـــن الذُّنوبِ والآثامِ والمعاصي، وقد تمثلَ ذلكَ في القرَابينِ والهباتِ والعطايا من أجْلِ الحصُولِ على الغُفرانِ، وهذَا ما جَعَلَ الكثيرَ من الباحثينَ يؤكِّدونَ على أنَّ اليهودَ لا يؤمنونَ بالجزاءِ الأُخرويِّ[2] لذلكَ فقد استعاضوا عنه بـــالجزاءِ الذي يقعُ على المذنبِ قبلَ موتِهِ.

---

(١) وهذا مخالفٌ لاعتقادِ المسلمينَ حيثُ إنَّ آدمَ وحواءَ -عليهما السلام - بعد ارتكابهما الخطأ وأكلهما من الشجرة المحرمة اعترفا بخطئهما وتابا وأنابا إلى الله تعالى، وقد قبل الله توبتهما ومنَّ عليهما بالغفران، ولم يكن نزولهما وهبوطهما إلى الأرض نتيجة لارتكاب الخطأ، وإنما كان لإعمار الأرض وتناسل النوع البشري حتى قيام الساعة.

(٢) يقول حبيب سعيد: (من الغريب أنه بينما كان الاعتقاد بحياة أخري بعد الموت من العقائد التي نادت بها أديان كثيرة في القديم مثل أمة الفرس فإن أمة إسرائيل لم تلتزم بهذه العقيدة) راجع: أديان العالم: ص ١٩٤، ويري د / حسن ظاظا (أن اليهود لم يفكروا في الغيبيات إلا بعد أن تعرضوا للسبي البابلي، ثم التشتت في الأرض على أيدي الرومان) الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه ص ١٠٩، بينما يؤكد شارل جنيبير أن اليهود عندما يتحدثون عن الآخرة فهم لا يقصدون ما يقصده النصارى والمسلمون، فاليهود يسخرون من الآخرة ويرونها بعيدة جدا، ولهذا أطلقوا عليها الاسم العبري (أحرنيت هيتاميم) التي معناها: آخر الأيام أو الآخرة، راجع: الفكر الديني اليهودي: ص ١١٢/١١١ ففيه تلخيص لرأي جنيبير، وانظر: يوم القيامة في =

أنَّ التشريعاتِ اليهوديةَ تؤكِّدُ على ضرورةِ وجودِ الواسِطَةِ أثناءَ تقديمِ القَرَابينِ والمكَفِّراتِ، ولابدَّ أن تكونَ هذِهِ الواسطةُ من نسلِ هارونَ لا من نسلِ غيرِهِ، ولذلكَ فقد جعلتْ تلكَ التشريعاتُ الكاهنَ السببَ في قبولِ القربان وتحقُّقِ المغفرةِ للمذنبِ أو عدمهما.

أما الفكرُ الدينيُّ النصرانيُّ فقد قامَ وتأسَّسَ على قضيةٍ محوريةٍ وجوهريةٍ هامةٍ وهيَ: أنَّ البشريةَ بأسْرِها تتجرَّعُ الخطيئةَ الأصلية أو الأولى التي ارتكَبَهَا آدمُ عليه السَّلامُ، ومن أجْلِ التخلُّصِ من هذِه الخطيئةِ فقد ضحَّى اللهُ بابنه الوحيدِ – المسيحِ عيسى عليه السَّلامُ – حسْبَ زعْمِهِم – الذي نزلَ في صورةٍ بشريةٍ وصُلِبَ وسُفِكَ دَمُهُ ليتحمَّلَ وزْرَ هذا الذنبِ عن بقيةِ البشرِ.

أنَّ عقيدةَ الصَّلْبِ والفِداءِ التي تقومُ عليها النَّصرانيةُ ما هيَ إلَّا من اختراعَاتِ بولس في ديانةِ المسيحِ عليه السَّلامِ، وقد جاء بها بولسُ من الفلسفاتِ المتعدِّدَةِ التي كانت سائدةً آنذاكَ، فالمسيحُ لم يأْتِ بها ولم يبشرْ أتباعَه بها.

أنَّ الكنيسةَ النصرانيةَ استغلتْ إيمانَ النَّصارَى بهذِهِ العقِيدةِ من أجْلِ بقاءِ السُلطانِ في يدِها، ولهذا فقد ابتكرتْ مجموعةً من الشَّعائرِ والطُّقوسِ والأسْرارِ كالتعميدِ والعشاءِ الرباني والاعترافِ فلا يُمكنُ نَيْلُ الغُفرانِ إلَّا عن طريقِهَا.

أما الإسْلامُ فقد كان موقِفُهُ صريحاً وواضِحَاً للغايةِ من هذِهِ القضيةِ، فكلُّ إنسانٍ يُحاسَبُ ويُسألُ عمَّا اقترفتْ يدَاهُ، كما أنَّه لا وساطةَ لرجالِ الدينِ فيما بينَ العبدِ وربِّهِ، فضلاً عن أنه جعلَ البابَ مفتوحاً في أيِّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ لرجوعِ العاصِي إلى طاعةِ اللهِ ورضوانهِ، مصداقاً لقولِهِ تعالى:" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

=

اليهودية والمسيحية والإسلام ص: ٥٤ وما بعدها د/ فرج الله عبد الباري أبو عطاالله، دار الآفاق العربية للطباعة والنشر والتوزيع بدون.

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" [١] وقوله سبحانه:" أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ" [٢]

<u>ثانياً: أهم توصيات البحث</u>: دعوة موجهة لأصحابِ الدياناتِ السَّماويةِ (اليهود والنصارى) إلي إعادة النظر، وإعمال العقل في النصوص الواردة في كتابهم المقدس عندهم، والتي كانت سبباً في انحرافهم عن طريقِ الله المستقيم، وهي تتعلقُ بالقضايا العقديةِ والتشريعيةِ والتعبُّديةِ، لعلَّهم يعودونَ إلى منهجِ الله القويم، وصراطِهِ المستقيمِ، قبل أن يأتيَ الوقتُ الذي لا ينفع فيه الندمُ ولا تُقبَلُ فيه التوبةُ، يومَ يقولُ الكافرُ يا ليتني كنتُ تُراباً.

وإذا كانت الدعوةُ موجهةً لأهل الكتابِ بالرجوعِ إلي تصحيحِ المعتقدِ، فإنها – كذلك– موجهةٌ للمسلمينَ بالعودةِ إلى العملِ بكتابِ اللهِ تعالى وسنةِ رسوله –ﷺ– والمسارعةِ إلي تصحيحِ المسارِ الخاطئِ وذلكَ بالتوبةِ والإنابةِ، اقتداءً بسيدِ الأنبياءِ والمرسلينَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

أنَّ الإنسانَ ينبغي عليه ألَّا ييأسَ وألَّا يقنطَ من رحمةِ اللهِ تعالى وعفْوِهِ ومغفرتِهِ، مهما بلغتْ ذنوبُه، أو عَظُمَتْ، فإذا توجَّهَ إلى اللهِ تعالى بالتوبةِ والندمِ وَجَدَ اللهَ غفوراً رحيماً.

(١) الآية: ١٨٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٦٢ من سورة النمل.

المراجـــــع

القرءان الكريم (جل من أنزله)

الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى.

http://st-takla.org/Saints/Coptic-Orthodox-Saints

موقع الأنبا تكلا.Biography/Coptic-Saints-Story_1532.html

http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=1222

www.http//gulbihar.yoo7/.com-topic.

www.orthodoxonline.org

www.saaid.net _ موقع: صيد الفوائد.

إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالـــي، ط دار المعرفة بيروت.

أديان العالم، حبيب سعد، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية.

أسرار الكنيسة السبعة، حبيب جرجس، ط ٤ مكتبة المحبة، القاهرة.

الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام د على عبد الواحد وافي، ط دار نهضة مصر ١٩٩٦م.

الإسلام واليهودية (دراسة مقارنة من خلال سفر اللاويين) د عماد على عبد السميع، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١ ١٤٢٥هـــ ٢٠٠٥م.

الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، محمد الشربيني الخطيب، تحقيق: مكتـــب البحوث والدراسات، دار الفكر بيروت ١٤١٥هـــ.

بين الإسلام والمسيحية – كتاب أبي عبيدة الخزرجي – تعليق د محمد عبـــد الغني شامة، ط مكتبة وهبة، ١٩٧٩م.

بيندكت السادس عشر البابا الذي لا يعرفُ شيئاً د عبد الودود شلبي، كتـــاب المختار ط ٢٠٠٧م.

تاريخ الديانة اليهودية: د/ محمد خليفة حسن، نشر دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة ط الأولي ١٩٩٨م

تاريخ الفكر الديني في الإسلام: محمد إقبال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١١٩٥م.

التربية الروحية د / أكرم ضياء العمري، مركز الدراسات والإعـــلام، دار إشبيليا، الرياض، ١٤٠٦هــ.

تفسير القرءان العظيم لابن كثير، ط ٢ دار طيبة للنشر والتوزيع، القـــاهرة تحقيق: سامي محمد سلامة.

تفسير سفر اللاويـــين، نجيـــب جـــرجس، ط مـــدارس الأحـــد، القـــاهرة، ط ١ ١٩٩٨ م.

التوبة إلي الله (معناها، حقيقتها، فضلها، شـــروطها) د: صـــالح الســـدلان، ط الرابعة ١٤١٦هــ، دار بلنسية للنشر والتوزيع، الرياض.

جامع البيان في تأويل آي القرءان، محمد بن جرير الطبري ط ١ مؤسســـة الرسالة ١٤٢٠ هــ ٢٠٠٠ م تحقيق: أحمد محمد شاكر.

الجامع الصحيح: سنن الترمذي ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وأخرين، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرءان: د فتنت مسيكة بزري مؤسسة المعارف – بيروت – لبنان ط الأولي ١٤١٦هــ١٩٩٦م.

الخطيئة والتوبة بين اليهودية والمسيحية د محمد أحمد الخطيب، مجلة كليـــة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر ٢٠٠٠م.

الخلاص من الخطيئة في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام، د محمد عبد الرحمن عوض، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيـــع، القـــاهرة بدون.

الديانة المسيحية: نهي نجار، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط الأول، ١٩٩٥م.

روح المعاني في تفسير القرءان العظيم والسبعِ المثاني، لأبي الفضل محمود

الألوسي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
سنن ابن ماجه، طبعة: دار الفكر، بيروت تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
سنن البيهقي، ط الأولي ١٤١٠هـ: نشر: دار الكتب العلمية بيروت.
شرح رسالة القديس بولس إلي أهل رومية: الأب متى المسكين، مطبعة القديس أنبا مقار، ط الأولي ١٩٩٢م.
صحيح مسلم، نشر دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت.
العبادة أحكام وأسرار: د عبد الحليم محمود، مطابع دار الشعب، القاهرة، ١٩٨١م.
الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه د حسن ظاظا، ط ٣ دار القلم، دمشق ١٩٩٥م.
قصة الحضارة / وول ديورانت، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق محمد بدران.
كتاب الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين، المؤلف: شرف الدين أبي الحسن على بن المفضل بن على المقدسي ثم الإسكندراني المالكي المتوفى سنة (٦١١هـ) المحقق: محمد سالم بن محمد بن جمعان العبادي، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى بدون تاريخ.٥٦- أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ وخادمه دراسة حديثة تاريخية هادفة ٦/١ د حارث سليمان الضاري تقديم أد. عمر سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة.
كتاب التوبة لابن القيم تحقيق: صابر البطاوي، ط دار الجيل، بيروت، ط الأولي: ١٩٩٢م.

لسان العرب لجمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن مكـرم الأنصـاري المعروف بابن منظور.
المجتمع اليهودي: زكي شنودة، مطبعة الخانجي، القاهرة
محاضرات في النصرانية: للشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكـر العربـي، القاهرة.
مسند الإمام أحمد، نشر مؤسسة الرسالة، ط ٢ تحقيق: شـعيب الأرنـاؤوط وآخرين.
المسيح في عقائد المصادر المسيحية لواء مهندس أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة ١٩٩٥م.
المسيحية، د أحمد شلبي، ط العاشرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٨م.
المسـيحية فـي الإسـلام: إبـراهيم لوقـا، مطبعـة النيـل المسـيحية، ط الأولي ١٩٣٨م.
المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جنيبير، ترجمة: د: عبد الحليم محمـود، من منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
المعجم المفهرس لألفاظ القرءان الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي.
معجم مقاييس اللغة لابن فارس.
مقارنة الأديان (الأديان القديمة): للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
مناهج البحث العلمـي د عبـد الـرحمن بـدوي، دار النهضـة العربيـة، مصر١٩٦٣م.
الموسوعة الحرة (www.wikipedia.org).
موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د عبد الوهاب المسـيري ط١، دار الشروق القاهرة ١٩٩٩ م.
الميزان في مقارنة الأديان، محمد عـزت الطهطـاوي، مكتبـة النهضـة المصرية، ط الرابعة، ١٩٧٣م.
اليهود تاريخ وعقيدة: د كامل سعفان، نشر دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨١م.

اليهود واليهودية: د عبد الجليل شلبي، نشر: دار أخبار اليوم (كتاب اليـــوم) عدد مارس ١٩٧٧م.
اليهودية د أحمد شلبي، ط ٨ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٨م.
يوم القيامة في اليهودية والمسيحية والإسلام، د فرج الله عبد الباري أبو عطا الله، دار الآفاق العربية للطباعة والنشر والتوزيع بدون.